العبارات

العلم بصفات ذاته من صفات أفعاله

تآليف

عبد اللّه بن يزيد الفزاري

آعده للنشر

توفيق عيّاد الشقروني



الجمعية الليبية للدراسات الأمازيغية
2025
طرابلس/ ليبيا

الكتاب: العبارات - العلم بصفات الذات من صفات الأفعال
الكاتب: عبد الله بن يزيد الفزاري
اعدها للنشر: توفيق عيّاد الشقروني
الناشر: الجمعية الليبية للدراسات الأمازيغية
صورة الغلاف والتصميم والإخراج: توفيق الشقروني
2025م

العبارات
العلم بصفات الذات من صفات الأفعال

تآليف

عبد اللّه بن يزيد الفزاري

آعده للنشر

توفيق عيّاد الشقروني

الجمعية الليبية للدراسات الأمازيغية
2025
طرابلس/ ليبيا

توطئة

التعريف بالكاتب

عبد الله بن يزيد الفزاري (795/748م) هو عالم مسلم بارز من مدينة الكوفة، ينتمي إلى قبيلة بني فزارة، ويُعدّ من أوائل علماء الكلام في المدرسة الإباضية. تتلمذ على يد أبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة، وأصبح له دور مؤثر في نشر الفكر الإباضي، خصوصًا في شمال أفريقيا. ويُعرف عنه أنه كان تاجر حرير سافر إلى البصرة لإكمال دراسته الدينية، حيث استفاد من العلماء هناك وطور فهمه للعقيدة الإباضية. ولعب الفزاري دورًا مهمًا في وضع أسس علم الكلام الإباضي، مع التركيز على مسائل التنزيه وصفات الله وأفعاله، وأثر بشكل كبير على تلامذته وعلى الفكر الإباضي اللاحق.

كتب الفزاري عدة مؤلفات كلامية وفكرية، أبرزها كتابه [التوحيد في معرفة الله]، وكتابه [القدر]، و[الفتيا]، و[في من رجع عن علمه وفارق النبي وهو على دينه]، إضافة إلى رسائل رد على المخالفين مثل [في الرد على المجسمة] و[في الرد على ابن عمير]. هذه المؤلفات تمثل جزءًا من الإرث الكلامي المبكر للإباضية، وهي مصدراً لفهم العقيدة الإباضية في القرن الثاني الهجري، مع التركيز على التوازن بين النقل والعقل في استدلالاته. ويُظهر أسلوبه حرصًا على تنزيه الله عن التشبيه أو التجسيم، مع إثبات صفاته وأفعاله بطريقة تحفظ وحدانيته وتؤكد كماله.

ويُعد كتاب «العبارات» من أبرز أعماله، حيث يركز على مفهوم الوحدانية ومعرفة الله وصفاته كشرط أساسي للعبادة الصحيحة. ويبدأ الفزاري رسالته بالاستناد إلى القرآن الكريم والأحاديث النبوية، ثم يستخدم

الاستدلال العقلي لتوضيح معنى التوحيد والتنزيه، مؤكدًا أن معرفة الله تتطلب إدراك وحدانيته وصفاته وأفعاله دون تشبيه بالمخلوقات. يوضح في رسالته ثبوت صفات الكمال لله مثل العلم والقدرة والحياة، ويشدد على أنها أزلية قديمة وليست مخلوقة، بينما أفعال الله مثل الخلق والرزق والهداية هي نتيجة إرادته وحكمته، وليست مشبهة بأفعال المخلوقات. ويربط الفزاري بين المعرفة النظرية لله والتطبيق العملي في العبادة، مؤكدًا أن من لم يعرف الله بما يليق به لا يُعبد على بصيرة.

إرث عبد الله بن يزيد الفزاري الفكري يمثل حجر أساس في دراسة علم الكلام الإسلامي، وخاصة في المدرسة الإباضية، ويُظهر قدرته على الجمع بين النقل والعقل في معالجة مسائل التوحيد والتنزيه، مع الحفاظ على الالتزام بالعقيدة الإسلامية الصحيحة. وكتابه «العبارات» لا يزال مرجعًا مهمًا للباحثين والمهتمين بعلم الكلام الإباضي، ويقدم نموذجًا واضحًا لتطور الفكر الكلامي المبكر وتفسيره لمفاهيم التوحيد والتنزيه وصفات الله وأفعاله، كما يعكس التوازن بين الثبات على العقيدة والانفتاح على التحليل العقلي المنهجي.

التعريف بالكتاب

كتاب ««العبارات»» للإمام «عبد الله بن يزيد الفزاري» أحد النصوص التأسيسية في علم الكلام الإباضي، ويُمثّل حلقةً مهمة في تطوّر الفكر العقدي الإباضي في مرحلة النضج الميتافيزيقي التي تلت الجدل الكلامي المبكر حول صفات الله وأفعاله.والكتاب رسالة موجزة في بيان «الوحدانية والتنزيه لله تعالى والعلم بصفات ذاته وأفعاله»، وضعها الفزاري باختصار مقصود بقوله: «أردنا بكتابنا هذا جمل الأصول فيقاس عليها ما لم نذكر»

بنية الكتاب ومضمونه

ينطلق الفزاري من أصلين:

1. «التوحيد الذاتي»: وهو نفي الشريك والمثيل عن الله تعالى، وإثبات القدم

والوحدانية له بلا بداية.

2. «الصفات الإلهية»: حيث يميّز بين صفات الذات (العلم، القدرة، الحياة...) وصفات الفعل (الخلق، الرحمة، العدل...)، على نحوٍ دقيق يهدف إلى تجنّب التشبيه والتجسيم.

يقرّر الفزاري أن الصفات ليست معانٍ زائدة على الذات، بل هي «أوصافٌ تُعبّر عن نفي النقص» لا عن إثبات أجزاء في الإله، فيقول: «ولا يجوز أن يكون لكل صفة معنى فيكون العلم غير القدرة والحكمة غير العلم... لأن ذلك يؤدي إلى فساد القول بأن لا قديم إلا هو» ويمتاز هذا المنحى بالتحرّز من القول بقدم الصفات على نحو الأشاعرة، مع رفض القول بخلق القرآن أو حدوث العلم كما عند المعتزلة، مما يجعل موقفه «وسطاً إباضياً مستقلاً».

المنهج الكلامي في الكتاب

اعتمد الفزاري طريقة السؤال والجواب، وهي أسلوب إباضي شائع في النصوص العقدية القديمة، بغرض ضبط المفاهيم وإزالة الالتباس. كما استخدم المصطلحات المنطقية (كالقدم، والحدوث، والإمكان، والإحاطة)، وشرحها بلغة عربية خالصة خالية من التأثر بالاصطلاح الفلسفي المترجم، مما يدل على «مرحلة ما قبل التفاعل الكامل مع الفلسفة اليونانية».

يُظهر الفزاري توازناً بين «النقل والعقل»؛ فهو يستند إلى النص القرآني في تقرير الصفات، لكنه يبرّرها عقلياً بنفي التضاد والتعدد في الذات الإلهية، فيقول: «الأضداد إنما تثبت لمن تحلّ الأشياء في ذاته، والله جلّ ثناؤه لا تحلّ الأشياء في ذاته»

مكانة الكتاب في علم الكلام الإباضي

يحتل هذا الكتاب منزلة مركزية بين مؤلفات الإباضية في العقيدة لأنه يمثّل: أقدم محاولة إباضية لتقعيد مفهوم الصفات» وفق مبدأ «التنزيه مع الإثبات»، وهو ما تبنّاه لاحقاً أئمة مثل أبي يعقوب الورجلاني في «المنهاج». نموذجاً للتقريب بين علم الكلام الإباضي والمعتزلي» من حيث التأكيد على

وحدة الذات الإلهية، دون الوصول إلى نفي الصفات مطلقاً.

أحد النصوص المعيارية» التي استند إليها شراح المذهب في صياغة مسائل العدل والإرادة والقدرة الإلهية، كما يظهر في «شرح النيل وشفاء العليل» للقطب اطفيش. وبذلك، يعدّ «العبارات» مرجعاً تأسيسياً في البناء العقدي الإباضي، يربط بين الاتجاه البصري العقلي القديم والطور العُماني اللاحق الذي بلور العقيدة الإباضية في صيغة منهجية متكاملة.

رسالة الفزاري هي مشروعٌ لردّ النزاعات الكلامية إلى أصل التوحيد الخالص. وهي تكشف عن «استقلال المدرسة الإباضية» في تأصيل مفهوم الصفات والعدل الإلهي، بعيداً عن تطرفي التشبيه والتعطيل.

لذلك يُنظر إلى هذا الكتاب بوصفه «أحد النصوص المؤسسة لعلم الكلام الإباضي»، ومرجعاً رئيساً في دراسة العقيدة العقلية الإسلامية في المغرب والمشرق معاً.

المراجع

1. محمد ناصر، «المدرسة الكلامية الإباضية في المشرق الإسلامي»، دار المدار الإسلامي، بيروت، 2013.

2. عيسى بن صالح السليماني، «أصول العقيدة الإباضية بين النقل والعقل»، وزارة الأوقاف العمانية، 2016.

3. محمد الطالبي، «الفكر الكلامي الإباضي: تطوره ومصادره»، مجلة دراسات إسلامية، العدد 12، 2009.

4. القطب اطفيش، «شرح النيل وشفاء العليل»، المجلد الأول، مسقط، وزارة التراث، 1990.

5-Madelung, Wilferd, ‹Early Ibāḍī Theology›, in Sabine Schmidtke (ed.), The Oxford Handbook of Islamic Theology, Oxford Handbooks (2016; online edn, Oxford Academic, 3 Mar. 2014), https://doi.org/10.1093/oxfordhb/9780199696703.013.004, accessed 18 Oct. 2025.

قام الدكتور عبد الرحمان السالمي بتحقيق عدة نصوص لعبد الله الفزاري من ضمنها كتاب العبارات.

الناسخ

هو سليمان بن عبد الرحمن بن محمد بن الحاج يحي ين محمد بن إبراهيم بن أبي بكر بن سليمان المعقلي

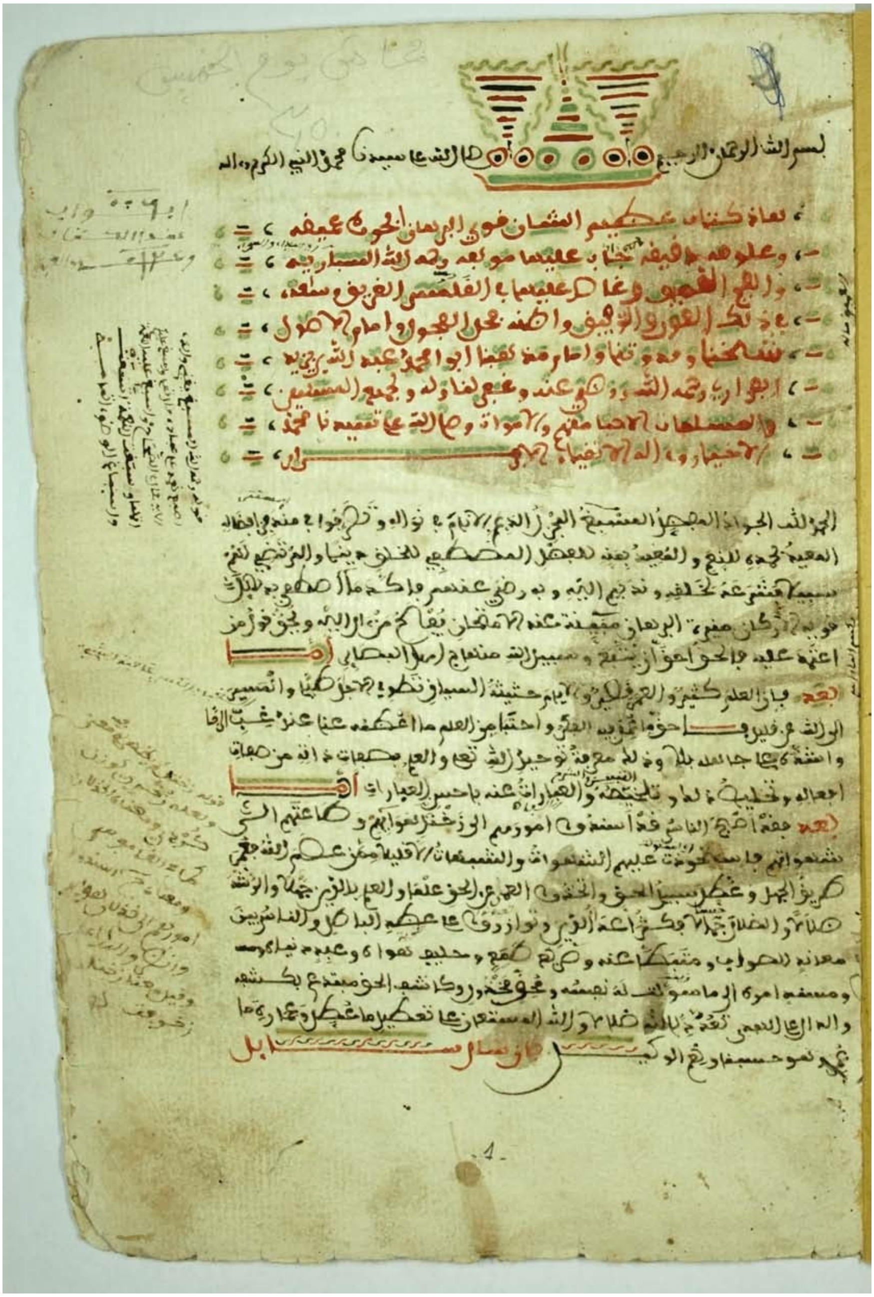
مدخل الناسخ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ النَّبِيِّ الْكَرِيمِ وَآلِهِ.

هَذَا كِتَابٌ عَظِيمُ الشَّأْنِ، قَوِيُّ الْبُرْهَانِ، أَبْحُرُهُ عَمِيقَةٌ، وَعُلُومُهُ دَقِيقَةٌ، جَابَ عَلَيْهَا مُؤَلِّفُهُ رَحِمَهُ اللَّهُ الْمُسْبَارِيَّةَ[1]، وَالْفَجَّ الْعَمِيقَ، وَغَاصَ عَلَيْهِمَا فِي الْفَلْسَفَةِ الْغَرِيقِ، سَاعَدَهُ فِي ذَلِكَ الْعَوْنُ وَالتَّوْفِيقُ، وَأَظُنُّهُ فَحْلَ الْفُحُولِ وَإِمَامُ الأُصُولِ، شَيْخُنَا وَقُدْوَتُنَا وَإِمَامُ مَذْهَبِنَا أَبُو مُحَمَّدٍ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ يَزِيدَ الْفَزَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ وَرَضِيَ عَنْهُ وَغَفَرَ لَنَا وَلَهُ وَلِجَمِيعِ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ الأَحْيَاءِ مِنْهُمْ وَالأَمْوَاتِ. وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ، الأَخْيَارِ وَآلِهِ الأَتْقِيَاءِ الأَبْرَارِ.

متن الكتاب

1- المسبارية: كناية عن أقصى غايات البحث والتحليل الدقيق، أي تعمق في البحث والتحليل حتى وصل إلى أبعد ما يمكن الوصول إليه.



الصفحة الاولى من مخطوطة الكتاب

العبارات

العلم بصفات ذاته من صفات أفعاله

الْحَمْدُ للّهِ الْجَوَاد، الْمُفَضِّل الْمُسْبِغِ الْمُجْزِل، الّذي عَمّ الأَنَامَ فِي نَوَاله، وَتَصرّفُوا فِي مَنّه مِنْ أَفْضَاله، الْمُعيد بِحَمْده للنّعَم، وَالْمعين بِمَنّه للفَضْل، الْمُصْطَفي للْخَلْق ديناً، وَالْمُرْتَضِي لَهُمْ سَبيلاً، فَشَرَعَهُ لِخَلْقه، وَنَدَبَهُمْ إِلَيْه، وَبه رَضِيَ عَنْهُمْ، فَأَكّد مَا اصْطَفَى به، قَوِيّةَ الأَرْكَانِ، مُنيرَةَ الْبُرْهَان، مُبَيّنَةً عِنْدَ الإِمْتِحَانِ، يُفْلِحُ مَنْ آلَ إِلَيْه، وَيَحِقُّ قَوْلُ مَن اعْتَمَدَ عَلَيْه، فَالْحَقُّ أَحَقُّ أَنْ يُتّبَعَ، وَسَبِيلُ الله مِنْهَاجُ أَهْلِ الْبَصَائِرِ.

أَمّا بَعْدُ، فَإِنّ الْعِلْمَ كَثِيرٌ، وَالْعُمْرَ قَصِيرٌ، وَالأَيّامَ حَثِيثَةُ السّيَاق، تَطْوي الأَجَلَ طَيّاً، وَالْمَسِيرُ إِلَى الله عَنْ قَلِيل؛ فَأَحَقُّ مَا عُمِلَ فِيه الْفِكْرُ وَاجْتُبِيَ مِنَ الْعِلْم، مَا أَعْظَمَهُ عَنَاءً عِنْدَ غِبّ الرّجَا، وَأَشَدُّهُ عَلَى جَاهِله. فَلا، وَذَلِكَ مَعْرِفَةُ تَوْحِيد الله تَعَالَى، وَالْعِلْمُ بِصِفَات ذَاته مِنْ صِفَاتِ أَفْعَالِه، وَتَخْلِيصُ ذَلِكَ وَتَلْخِيصُهُ وَالْعِبَارَاتُ عَنْهُ بِأَحْسَنِ الْعِبَارَات.

أَمّا بَعْدُ، فَقَدْ أَصْبَحَ النّاسُ قَدْ أَسْنَدُوا أُمُورَهُمْ إِلَى زَخْتَلِ[1] هَوَاهُمْ، وَطَاعَتَهُمْ إِلَى شَهَوَاتِهِمْ، فَاسْتَحْوَذَتْ عَلَيْهِمُ الشّهَوَاتُ وَالشُّبُهَاتُ إِلاّ قَلِيلاً مِمّنْ عَصَمَ اللهُ، فَعَمّ طَرِيقَ الْجَهْلِ، وَعُطّلَ سَبِيلُ الْحَقّ، وَاتّخَذُوا الْعَمَى عِلْماً، وَالْعِلْمَ بِالدّين جَهْلاً، وَالرُّشْدَ ضَلالاً، وَالضّلالَ جَمالاً، فَكَثُرَ أَعْدَاءُ الدّين، وَتَوَازَرُوا عَلَى عَضْدِ الْبَاطل، وَالْقَاسِمُ بَيْنَ مَعْدنه الْبَاطل، وَمُتَبَطّئٌ عَنْهُ، وَضَرِيمُ طَمَعٍ، وَحَلِيفُ هَوَاهُ، وَعَبْدُ دُنْيَاهُ، أَوْ مُسْنِدٌ أَمْرَهُ إِلَى مَا سَوّلَتْ لَهُ نَفْسُهُ، وَمُحِقٌّ مَخْذُولٌ، وَكَاشِفُ الْحَقّ مُبْتَدِعٌ بِكَشْفه، وَالدّالُّ عَلَى الْحَقّ تُعَدُّ دَلالَتُهُ ضَلالاً! وَاللهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى تَعْطِيلِ مَا عُطّلَ، وَعِمَارَةِ مَا عُمّرَ، هُوَ حَسْبُنَا وَنِعْمَ الْوَكِيلُ.

فَإِنْ سَأَلَ سَائِلٌ فَقَالَ: أَتَزْعُمُ أَنّ اللهَ تَعَالَى لَمْ يَزَلْ؟

1- زختل: في هامش المخطوط تعليق بإرجع الكلمة الى معني الخذلان.

قِيلَ: نَعَمْ.

فَإِنْ قَالَ: فَمَا مَعْنَى قَوْلِكَ: لَمْ يَزَلْ؟

قِيلَ: أَعْنِي أَنَّهُ قَبْلَ كُلِّ حَادِثٍ، وَأَنَّهُ مِنْ غَيْرِ بَدْءٍ؛ وَكَذَلِكَ تَأْوِيلُ قَدِيمٍ مِثْلُ تَأْوِيلِ لَمْ يَزَلْ.

فَإِنْ قَالَ: أَفَتَقُولُ إِنَّ اللهَ لَمْ يَزَلْ عَالِماً؟

قِيلَ: نَعَمْ.

فَإِنْ قَالَ: أَفَمَعْنَى قَوْلِكَ: «اللهُ عَزِيزٌ لَمْ يَزَلْ» غَيْرُ مَعْنَى قَوْلِكَ: «لَمْ يَزَلْ عَالِماً»؟

قِيلَ: هَذَا الْكَلَامُ يَحْتَمِلُ مَعْنَيَيْنِ؛ أَحَدُهُمَا: أَنَّكَ إِذْ قُلْتَ «لَمْ يَزَلْ» وَ«لَمْ يَزَلْ عَالِماً» أَنَّكَ ثَبَّتَّ بِهَذَيْنِ الْكَلَامَيْنِ مَعْنَيَيْنِ، فَلَا، لَيْسَ هُوَ غَيْرَ مِنْ هَذَا التَّأْوِيلِ وَلَكِنَّهُ غَيْرٌ مِنْ تَأْوِيلٍ آخَرَ: فَقَوْلُكَ إِنَّ اللهَ لَمْ يَزَلْ تُثْبِتُ اللهَ وَتَنْفِي عَنْهُ الْحَدَثَ، وَأَنَّهُ قَبْلَ كُلِّ حَدَثٍ، وَلَيْسَ فِي تَأْوِيلِ «لَمْ يَزَلْ» وَأَنَّهُ «قَدِيمٌ» أَنَّهُ عَالِمٌ بِالْحَدَثِ وَأَنَّهُ لَا يُشْبِهُ الْحَدَثَ. وَإِذَا قُلْتَ أَنَّهُ عَالِمٌ أَثْبَتَّ أَنَّهُ مُدْرِكٌ مُحِيطٌ مُسْتَبِينٌ، وَإِنَّ الْجَهْلَ مَنْفِيٌّ بِالْعِلْمِ، وَالْإِحَاطَةَ ثَابِتَةٌ لَهُ بِقَوْلِنَا: عَالِمٌ؛ وَلَيْسَ الْجَهْلُ مَنْفِيّاً بِالْقِدَمِ وَالْإِحَاطَةُ ثَابِتَةٌ لَهُ بِقَوْلِنَا: لَمْ يَزَلْ. فَلِذَلِكَ قُلْنَا إِنَّ مَعْنَى قَوْلِنَا: لَمْ يَزَلْ غَيْرُ مَعْنَى قَوْلِنَا: لَمْ يَزَلْ عَالِماً؛ لِنَفْيِ الْعِلْمِ مِنَ الْجَهْلِ، وَذَلِكَ نَفْيُ الْحَدَثِ بِالْقِدَمِ.

أَلَا تَرَى أَنَّكَ إِذَا قُلْتَ: لَمْ يَزَلْ نَفَيْتَ التَّدْبِيرَ؟ وَإِذَا قُلْتَ: عَالِمٌ لَمْ تَنْفِ بِالْعِلْمِ التَّدْبِيرَ؟

فَقُلْنَا مَعْنَى هَذَا الْكَلَامِ غَيْرُ مَعْنَى هَذَا الْكَلَامِ، لَمَّا نَفَتِ الْكَلِمَةُ الْأُولَى مِنَ الْجَهْلِ. لَمْ تَنْفِهِ الْكَلِمَةُ الْأُخْرَى.

فَإِنْ قَالَ: أَفَلَهُ بِالْأَشْيَاءِ عِلْمٌ؟

قِيلَ: نَعَمْ، أَعْنِي أَنَّهُ عَالِمٌ بِالْأَشْيَاءِ لَا أَنَّ لَهُ عِلْماً، بِأَيِّنَا مِنْهُ لَهُ عِلْمُ الْأَشْيَاءِ؟

فَإِنْ قَالَ: أَفَعَلِمَ الْأَشْيَاءَ بِعِلْمٍ أَوْ بِغَيْرِ عِلْمٍ؟

قِيلَ: هَذَا الْكَلَامُ يَحْتَمِلُ مَعْنَيَيْنِ؛ أَحَدُهُمَا: عِلْمٌ بِعِلْمٍ عَلَى مَا يَقُولُ: «اهْتَدَى بِالْإِيمَانِ وَضَلَّ بِالْكُفْرِ»، لَيْسَ يُرَادُ تَثْبِيتُ مَعْنَيَيْنِ كَانَ أَحَدُهُمَا بِالْأُخْرَى، فَيُقَالُ: «عَلِمَ بِعِلْمٍ» عَلَى هَذَا الْمَعْنَى. وَالْمَعْنَى الْآخَرُ: «عَلِمَ بِعِلْمٍ» عَلَى مَا يَكُونُ الشَّيْئَانِ أَحَدُهُمَا بِالْآخَرِ، فَبِمَاذَا

أَخْطَأَ؟

فَإِنْ قَالَ: أَفَلَمْ يَعْلَمْ بِعِلْم؟

قِيلَ: هَذَا النَّفْيُ يَحْتَمِلُ مَعْنَيَيْنِ:

أَحَدُهُمَا عَلَى تَأْوِيلِ أَنَّهُ لَمْ يَهْتَدِ أَحَدٌ بِالْإِيمَانِ وَلَا ضَلَّ أَحَدٌ بِالْكُفْرِ، فَلَا يَجُوزُ لَمْ يَعْلَمْ بِعِلْمٍ عَلَى هَذَا الْمَعْنَى؛ لأَنَّ إِجَازَةَ هَذَا لِأَنَّهُ لَمْ يَهْتَدِ الْمُؤْمِنُونَ بِالْإِيمَانِ وَلَا ضَلَّ الْكَافِرُونَ بِالْكُفْرِ. وَالْمَعْنَى الْآخَرُ: لَمْ يَعْلَمْ بِعِلْمٍ أَيْ أَنَّهُ لَمْ يُحْدِثْ عِلْماً بِهِ عَلِمَ الْأَشْيَاءَ، فَهَكَذَا نَقُول.

فَإِنْ قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ الْعِلْمِ، مَا هُوَ؟

قِيلَ: هَذَا الْكَلَامُ يَنْصَرِفُ عَلَى مَعَانٍ؛ أَحَدُهُمَا: إِنْ أَرَادَ مَا الْعِلْمُ؟ فَالْعِلْمُ الْإِحَاطَةُ وَالاسْتِبَانَةُ وَدَرْكُ الشَّيْءِ. فَإِنْ أَرَادَ مَا الْعِلْمُ يُرَادُ أَنَّ ذَاتاً يُقَالُ لَهُ: عِلْمٌ، فِي تَأْوِيلِ: إِنَّ اللَّهَ لَمْ يَزَلْ عَالِماً وَإِنَّ لِلَّهِ بِالْأَشْيَاءِ عِلْماً؛ فَخَطَأٌ. وَإِنْ أَرَادَ مَا الْعِلْمُ الَّذِي هُوَ تَدْبِيرُ اللَّهِ وَحِكْمَتُهُ مِثْلُ الْقُرْآنِ وَالتَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ تِبْيَانِهِ وَبُرْهَانِهِ وَنُورِهِ؛ وَإِنْ لَمْ يُرِدْ هَذَا، فَلَيْسَ يَجُوزُ مَا الْعِلْمُ إِلَّا فِي إِبَانَةِ الْعِلْمِ مِنَ الْقُدْرَةِ. وَإِبَانَةُ الْعِلْمِ مِنَ الْقُدْرَةِ: إِنَّ الْعِلْمَ الْإِحَاطَةُ وَالاسْتِبَانَةُ وَدَرْكُ الشَّيْءِ، وَإِنَّ الْمُدْرِكَ غَيْرُ مُسْتَتِرٍ عَنْهُ وَلَا مُخَاطِبٍ.

فَإِنْ قَالَ: أَفَعِلْمُهُ بِالْأَشْيَاءِ شَيْءٌ؟

قِيلَ: إِنَّا لَمْ نُثْبِتْ لَهُ عِلْماً يَكُونُ بَائِناً مِنْهُ بِهِ عَلِمَ الْأَشْيَاءَ فَيَكُونَ تَصَوُّرُ الْعِلْمِ شَيْئَيْنِ، فَيُقَالُ: عِلْمُهُ شَيْءٌ. وَلَكِنَّ الَّذِي لَهُ عِلْمٌ بِالْأَشْيَاءِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ، وَالْمَوْصُوفُ بِالْعِلْمِ شَيْءٌ. وَأَمَّا إِذَا تَكَلَّمْتَ عَلَى الْعِلْمِ فَأَفْرَدْتَ الْكَلَامَ فَخَطَأٌ أَنْ يُقَالَ: إِنَّ الْعِلْمَ بِالْأَشْيَاءِ شَيْءٌ، وَإِنَّ عِلْمَهُ شَيْءٌ. وَإِنَّمَا قُلْنَا لَهُ عِلْمٌ أَرَدْنَا أَنْ نَصِفَ الْخَالِقَ بِغَيْرِ صِفَةِ مَنْ لَا يُحِيطُ، وَأَنْ نَنْفِيَ عَنْهُ مِنَ الْجَهْلِ مَا يُضَافُ إِلَى الْخَلْقِ. فَقَوْلُنَا لَهُ عِلْمٌ نَعْنِي إِنَّهُ مِمَّنْ لَا يَجْهَلُ وَلَا تَخْفَى عَنْهُ الْأُمُورُ، وَلَيْسَ نُثْبِتُ أَمْراً مُضَافاً إِلَيْهِ فَيُقَالُ: هُوَ وَذَلِكَ.

فَإِنْ قَالَ: إِذَا لَمْ يَجُزْ أَنْ يُقَالَ: عِلْمُهُ شَيْءٌ، أَفَتَقُولُ: عِلْمُهُ لَا شَيْءَ؟

قِيلَ: إِنَّ الشَّيْءَ فِي هَذَا يَحْتَمِلُ مَعَانٍ؛ يُقَالُ: لَا شَيْءَ يُرَادُ بِهِ تَصْغِيرٌ وَإِبْطَالُهُ، نَظِيرُ قَوْلِ الْقَائِلِ: لَيْسَ قَوْلُكَ بِشَيْءٍ، وَلَيْسَ أَمْرُكَ بِشَيْءٍ، يُرَادُ بِهِ تَصْغِيرٌ، وَكَقَوْلِ الْقَائِلِ: لَيْسَ

قَوْلَك بشَيْءٍ ، يُرَادُ به الإِبْطَالُ . فَلا يَجُوزُ لَيْسَ عِلْمُهُ شَيْءٌ ؛ لِأَنَّ ذَلِك يَرْمِي إِلَى أَنَّهُ لا يَعْلَمُ الأَشْيَاءَ . وَإِنَّمَا قُلْنَا إِحَاطَتُهُ لَيْسَ كَإِحَاطَةِ غَيْرِه .

فَإِنْ قَالَ : أَفَتَقُولُ : لا عِلْمَ لَهُ بالأَشْيَاءِ ، يُرِيدُ : عِلْمٌ غَيْرٌ لَهُ عِلْمَ الأَشْيَاءِ ؟

قِيلَ : قَدْ نَقُولُ : لَه عِلْمٌ بالأَشْيَاءِ عَلَى مَا سَلَفَ مِنْ عِبَارَتِنَا ، وَلَيْسَ لَه عِلْمٌ قَدِيمٌ بِهِ عِلْمَ الأَشْيَاءِ ؛ إِذَا عُدَّ هُوَ وَذَلِكَ العِلْمُ كَانَ ذَلِكَ مَعْنَيَيْنِ قَدِيمَيْنِ .

فَإِنْ قَالَ : أَفَعِلْمُهُ قَدِيمٌ أَمْ حَدِيثٌ ؟

قِيلَ : هَذَا الكَلامُ يَحْتَمِلُ مَعْنَيَيْنِ ؛ أَحَدُهُمَا : عِلْمُهُ قَدِيمٌ عَلَى تَأْوِيلِ أَنَّ إِحَاطَةَ اللَّه بِالأَشْيَاء لَمْ تَحْدُثْ ، وَأَنَّ المُحِيطَ العَالِمَ القَدِيمَ لَمْ يَزَلْ ، فَهَذَا وَجْهٌ يَصِحُّ أَنَّ عِلْمَهُ قَدِيمٌ يُرَادُ أَنَّ اسْتِبَانَتَهُ قَدِيمَةٌ لَمْ تَحْدُثْ . وَالمَعْنَى الآخَرُ : قَدِيمٌ أَيْ أَنَّ ثَمَّ مَعْنًى قَدِيماً يُقَالُ لَهُ عِلْمٌ ، غَيْرُ العَالِمِ ، مُضَافٌ إِلَيْه ، فَيَكُونُ هُوَ وَذَلِك مَعْنَيَيْنِ قَدِيمَيْنِ . فَلِمَاذَا فَاسِدٌ ؟

فَإِنْ قَالَ : فَلِمَ لا تَقُولُ : عِلْمُهُ شَيْءٌ ، عَلَى مَعْنَى مَا تَقُولُ : عِلْمُهُ قَدِيمٌ ؟

قِيلَ : إِذَا قُلْتَ : عِلْمُهُ شَيْءٌ ، كُنْتَ قَدْ أَبَنْتَهُ مِنْهُ ، وَإِذَا قُلْتَ : عِلْمُهُ قَدِيمٌ ، أَرَدْتَ بِذَلِك أَنَّ اللَّهَ لَمْ يَسْتَفِدِ الإِحَاطَةَ بِالأَشْيَاءِ . فَتَأْوِيلُ قَوْلِنَا : عِلْمُهُ قَدِيمٌ نَفْيُ حُدُوثِ الاسْتِبَانَةِ ، وَشَيْءٌ إِنَّمَا هُوَ يُثْبِتُ العَدَدَ .

فَإِنْ قَالَ : أَفَتَقُولُ : اللَّهُ وَعِلْمُهُ ؟

قِيلَ : هَذَا الكَلامُ خَطَأٌ ؛ لأَنَّ هَذَا الوَاوَ يُثْبِتُ ثَانِياً ، وَكَذَلِكَ اللَّهُ وَقُدْرَتُهُ وَعِزَّتُهُ وَإِرَادَتُهُ . وَالأَمْرُ فِي صِفَاتِ الذَّاتِ أَجْمَعَ كَالأَمْرِ فِي العِلْمِ ، لا يُقَالُ فِيه : اللَّهُ وَكَذَا وَكَذَا .

فَإِنْ قَالَ : فَإِذَا قُلْتَ : لله عِلْمٌ عَلَى نَفْيِ الجَهْلِ لا عَلَى أَنَّ ثَمَّ مَعْنًى غَيْرُ اللَّهِ مُضَافٌ إِلَيْه ، فَهَلْ تُثْبِتُ بِنَفْيِ الجَهْلِ عِنْدَ ضِدِّ مَا نَفَيْتَ ؟

قِيلَ : هَذَا الكَلامُ يَحْتَمِلُ مَعْنَيَيْنِ ؛ أَحَدُهُمَا : هَلْ تُثْبِتُهُ بِصِفَةٍ هِيَ ضِدٌّ صِفَةِ الجَهْلِ ؟ فَنَعَمْ ، العَالِمُ عَلَى غَيْرِ صِفَةِ الجَاهِلِ . وَالمَعْنَى الآخَرُ : هَلْ تُثْبِتُ ضِدَّ مَا نَفَيْتَ أَنَّ مَعْنًى هُوَ عِلْمٌ هُوَ ضِدُّ الجَهْلِ ؛ إِذَا عُدَّ العَالِمُ هُوَ وَذَلِكَ كَانَ شَيْئَيْنِ ؟ فَهَذَا خَطَأٌ ؛ لأَنَّ الأَضْدَادَ

لا تثبت في اللّه، والأضداد إنما تثبت لمن تحل الأشياء في ذاته، واللّه جل ثناؤه لا تحل الأشياء في ذاته. فالمسألة: هل تثبت ضدّ ما نفيت، خطأ.

فإن قال: أفتقول: الّذي هو عالم بالأشياء له علم بالأشياء؟

قيل: هذا كلام يحتمل معنيين؛ أحدهما: على التّكرار على مثل ما يقال: قديم لم يزل، وتأويل قديم ولم يزل معنى واحد؛ لأنّ هاتين اللّفظتين معناهما نفي الحدث. والمعنى الآخر: العالم بالأمور له علم غيره مضاف إليه فتكون صفة العالم منفصلة من صفة القديم. فهذا فاسد.

فإن قال: أفتقول: العالم بالأشياء لا علم له بالأشياء؟

قيل: هذا لا يجوز؛ لأنّه لمّا أن كان قولنا: العالم له علم على التّكرار، كان القول بأنّ العالم لا علم له، نقضاً.

فإن قال: أفعلم الأشياء بغير علم؟

قيل: هذا الكلام يحتمل معان؛ أحدها: بغير علم الأشياء أنّ معنى هو غيره به علم الأشياء؛ فخطأ. والمعنى الآخر: بغير علم علم الأشياء؛ أي بلا علم مستفاد ولا علم قديم هو غيره به علم الأشياء؛ فصحيح. والمعنى الآخر: بغير علم الأشياء، يراد به نقض الأوّل؛ فهذا فاسد.

فإن قال: أفعلم اللّه محيط بالأشياء؟

قيل: نعم، على تأويل أنّه ليس شيء خارجاً من نفاذ بصر اللّه واستبانته. والمعنى الآخر: أنّ علمه محيط أنّ ثمّ معنى غير اللّه أحاط بالأشياء؛ فهذا فاسد. فإن أردت التّكلّم على العلم ليرجع في معنى لفظته إلى العالم فصحيح، وإن لم ترد أن ترجع في التّأويل إلى العالم فخطأ؛ نظير ما في القرآن: «واسأل القرية الّتي كنّا فيها» ورجع بذلك إلى أهل القرية، و«اسأل العير» وأراد أهل العير، وقالوا: «إنّا سمعنا منادياً ينادي للإيمان»، والسّماع إنّما وقع على المنادي وأرادوا النّداء. ونظير قول القائل: يا ربّ أنت رجائي، وإنّما عنى أنت المرجوّ.

فَإِنْ قَالَ: فَإِذَا قُلْتَ: إِنَّ لِلّهِ عِلْماً عَلَى أَنَّهُ الْعَالِمُ، وَإِنَّ عِلْمَهُ مُحِيطٌ بِالْأَشْيَاءِ عَلَى أَنَّهُ الْمُحِيطُ؛ أَفَتَقُولُ: اللّهُ عِلْمٌ؟

قِيلَ: لَا.

فَإِنْ قَالَ: وَلِمَ؟

قِيلَ: مِنْ قِبَلِ مَا تَرَى: اللّهُ هِيَ مِنَ الْأَسْمَاءِ لِنَفْسِهِ، وَلَمْ يَكِلْ ذَلِكَ إِلَى خَلْقِهِ، وَلَمْ يُسَمِّ نَفْسَهُ عِلْماً وَلَا قُدْرَةً وَلَا عِزَّةً وَلَا عَظَمَةً وَلَا نَفْساً وَلَا وَجْهاً وَلَا مَكَاناً، وَسَمَّى نَفْسَهُ الْعَزِيزَ الْحَكِيمَ الْقَادِرَ الْعَالِمَ؛ فَلَيْسَ لِلْخَلْقِ فِي ذَلِكَ اخْتِيَارٌ.

وَنَظِيرُ مَا ذَكَرْنَا مِنَ الْكَلَامِ: يُقَالُ لَوْلَا مَكَانُ رَبِّي لَفَعَلْتُ كَذَا وَكَذَا، يُقَالُ لَوْلَا رَبِّي لَفَعَلْتُ كَذَا وَكَذَا. وَكَذَلِكَ أَطْعَمْتُكَ لِوَجْهِ اللّهِ، وَأَسْأَلُكَ بِوَجْهِ اللّهِ؛ تَأْوِيلُهُ: أَسْأَلُكَ بِاللّهِ. وَقَالَ: «يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللّهِ»، يَعْنِي عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي اللّهِ. وَقَالَ: «وَيُحَذِّرُكُمُ اللّهُ نَفْسَهُ»، يُقَالُ: إِنَّ اللّهَ عَزَّ وَجَلَّ حَذَّرَنَا إِيَّاهُ، وَلَا يُقَالُ: اللّهُ وَجْهٌ وَلَا جَنْبٌ وَلَا مَكَانٌ، وَكَذَلِكَ الْأَمْرُ فِي الْعَالَمِ وَمَا لَمْ نَذْكُرْ فَعَلَى حَسَبِ مَا ذَكَرْنَا.

وَيُقَالُ: أَنْزَلَ اللّهُ هَذَا بِعِلْمِهِ، وَفَعَلَ هَذَا بِعِلْمِهِ، وَهَذَا مِنْ عِلْمِ اللّهِ، أَيْ هَذَا مِمَّا عَلِمَهُ اللّهُ؛ كُلُّ هَذَا صَحِيحٌ جَائِزٌ، أَنْزَلَهُ اللّهُ بِعِلْمِهِ تَأْوِيلُهُ: أَنْزَلَهُ وَهُوَ بِهِ عَالِمٌ. وَلَا يَجُوزُ هُوَ رَبُّ عِلْمِهِ وَمَالِكُ عِلْمِهِ، إِلَّا أَنْ يُرَادَ الْعِلْمُ الَّذِي هُوَ مَعْلُومٌ مِثْلُ الْقُرْآنِ وَالتَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ. وَكَذَلِكَ جَمِيعُ صِفَاتِ الذَّاتِ لَا يُقَالُ فِي شَيْءٍ مِنْهَا: إِنَّ اللّهَ رَبُّهُ وَإِلَهُهُ وَمَوْلَاهُ. وَيُقَالُ لَهُ مَا كَانَ مِنْ صِفَاتِ الذَّاتِ: يُقَالُ لَهُ عِلْمٌ عَلَى تَأْوِيلِ أَنَّهُ لَا يَجْهَلُ، لِأَنَّ الَّذِي لَا عِلْمَ لَهُ بِالْأَمْرِ جَاهِلٌ؛ وَفِي تَأْوِيلِ أَنَّهُ رَبُّهُ: أَنَّ ذَلِكَ تَدْبِيرٌ؛ لِأَنَّ كُلَّ مَرْبُوبٍ مُدَبَّرٌ.

وَكَذَلِكَ إِنْ سَأَلَ سَائِلٌ فَيُقَالُ: هَلْ لَهُ قُدْرَةٌ، وَمَا قُدْرَةُ رَبِّي قَدِيمَةٌ أَمْ مُحْدَثَةٌ؟

كَانَ مَسْلَكُ الْجَوَابِ فِي ذَلِكَ عَلَى مَا سَلَكْنَا فِي الْعِلْمِ. وَالْقُدْرَةُ إِمْكَانُ الشَّيْءِ، وَنَفْيُ الِاسْتِصْعَابِ وَالِامْتِنَاعِ وَالتَّعَذُّرِ، وَأَنَّ الشَّيْءَ غَيْرُ مُتَأَبٍّ عَنْهُ وَلَا مَعْجُوزٍ، وَأَنَّ تَأْوِيلَ لِلْقَادِرِ قُدْرَةً أَنَّ الْقَادِرَ بِالصِّفَةِ الَّتِي تَكُونُ بِهَا الْأَفْعَالُ. وَإِنْ أَرَدْتَ مَعْنَى يُقَالُ لَهُ قُدْرَةٌ فِي تَأْوِيلِ: إِنَّ اللّهَ لَمْ يَزَلْ قَادِراً بِهَا؛ فَخَطَأٌ.

إنْ سَأَلَ سَائِلٌ فَقَالَ: قُدْرَتُه مُحِيطَةٌ بِالأَشْيَاء؟

قِيلَ: نَعَمْ، عَلَى مِثْلِ مَا قُلْنَا: عِلْمُهُ مُحِيطٌ بِالأَشْيَاء؛ يُرَادُ أَنَّهُ لَيْسَ شَيْءٌ إِلَّا وَقُدْرَةُ اللّه عَلَيْه جَارِيَةٌ. وَنَقُولُ: قُدْرَتُهُ مُحِيطَةٌ بِالأَشْيَاء عَلَى تَأْوِيل أَنَّ اللّهَ الْقَادِرُ عَلَى الأَشْيَاءِ، وَأَنَّ الأَشْيَاءَ غَيْرُ مُمْتَنِعَة عَلَيْه وَلا مُسْتَغْلَق عَلَيْه إِحْدَاثُهَا وَبِنَاؤُهَا وَبَقَاؤُهَا.

فَإِنْ قَالَ: فَكَيْفَ تَقُولُ فِي اللّفْظِ قُدْرَةٌ، ثُمّ تَصِيرُ فِي التّفْسِيرِ إِلَى الْقَادِرِ؟

قِيلَ: هَذَا نَظِيرُ مَا أَخْبَرَ اللّهُ عَنْهُمْ أَنّهُمْ قَالُوا: «سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ»، وَ«سَمِعْنَا مُنَادِياً يُنَادِي لِلْإِيمَانِ»، فَأَوْقَعَ السّمَاعَ عَلَى الْمُنَادِي وَأَرَادَ النّدَاءَ. وَيُقَالُ: أَنْتَ رَجَائِي وَإِنّمَا عَنَى أَنْتَ الْمَرْجُوّ. وَقَالَ: «وَاعْبُدْ رَبّكَ حَتّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ»، وَالْيَقِينُ مَا فِي الْقَلْب، وَإِنّمَا أَرَادَ الْمُوقَنَ بِه: الْمَوْتَ. وَلِهَذَا نَظَائِرُ، فَتَكَلّمْنَا فِي هَذَا عَلَى نَظِيرِه مِنَ الأَشْيَاء، وَالْقُدْرَةُ تَنْفَصِلُ مِنَ الْعِلْم؛ لِأَنّ الْقُدْرَةَ تَحْتَهَا التّدْبِيرُ، وَالْعِلْمُ يَكُونُ مَعْلُومُهُ تَدْبِيراً وَغَيْرَ تَدْبِير. وَبَيَانُ ذَلِكَ أَنّكَ تَقُولُ: يَعْلَمُ نَفْسَهُ وَخَلْقَهُ، وَلَا يَجُوزُ فِي الْقُدْرَةِ أَنْ تَقُولَ: يَقْدِرُ عَلَى نَفْسِه وَخَلْقِه، إِنّمَا تَحْتَ يَقْدِرُ أَنْ يُدَبّرَ وَيُبْقِيَ وَيُفْنِيَ. وَالْقُدْرَةُ إِنّمَا تَجْرِي عَلَى الأَفْعَال فِي حَالِهَا وَالأَفْعَال الْمُسْتَأْنَفَة، وَالْعِلْمُ بِمَا كَانَ وَمَصَارُهَا يَكُونُ وَلَمْ يَمْضِ رُبّمَا يَحْدُثُ. فَنَقُولُ: اللّهُ يَعْلَمُ نَفْسَهُ، فَهُوَ الْعَالِمُ وَهُوَ الْمَعْلُومُ؛ فَهُوَ مَعْلُومُ الْعِلْم، وَالْعَالِمُ وَالْمَعْلُومُ وَاحِدٌ، وَلَا يَجُوزُ أَنْ يُقَالَ: الْقَادِرُ وَالْمَقْدُورُ عَلَيْه وَاحِدٌ.

فَإِنْ قَالَ: أَفَعِلْمُهُ بِأَنّكَ حَيٌّ هُوَ عِلْمُهُ بِأَنّ هَذَا مَيّتٌ؟

قِيلَ: هَذَا خَطَأٌ؛ لِأَنّا لَمْ نُثْبِتْ عِلْماً غَيْرَ الْعَالِم فَيَكُونَ لِكُلّ مَعْلُوم عِلْمٌ، وَأَنْ يَكُونَ عِلْمٌ وَاحِدٌ لِكُلّ مَعْلُوم، وَلَكِنّا نُثْبِتُ لِلْعَالِم عِلْماً، يَعْنِي أَنّ الْعَالِمَ لَا يَجْهَلُ. فَالّذِي يَعْلَمُ بِأَنّكَ حَيٌّ هُوَ الْعَالِمُ بِأَنّ فُلَاناً مَيّتٌ، فَالْعَالِمُ بِالأَشْيَاء الْمُخْتَلِفَة وَاحِدٌ. وَلَا يَجُوزُ أَنْ تَقُولَ: عِلْمُهُ بِهَذَا هُوَ عِلْمُهُ بِغَيْرِه؛ لِأَنّ هَذَا يُثْبِتُ انْفِصَالَ الْعِلْم مِنْهُ، وَلَا يُقَالُ: لَيْسَ بِهِ؛ لِأَنّ لَيْسَ بِه يُثْبِتُ الْعَدَدَ، وَلَكِنّ الْعَالِمَ بِالأَشْيَاء الْمُتَبَايِنَة وَاحِدٌ.

وَكَذَلِكَ إِنْ سَأَلَ سَائِلٌ فَقَالَ: قُدْرَتُهُ عَلَى كَذَا وَكَذَا هُوَ قُدْرَتُهُ عَلَى غَيْرِ ذَلِكَ؟

كَانَ الْجَوَابُ فِي هَذَا نَظِيرَ الْجَوَابِ فِي الْعِلْم. وَجَمِيعُ مَا تُسْأَلُ عَنْهُ مِنْ صِفَاتِ الذّاتِ

مِنَ الْعِلْمِ وَالْقُدْرَةِ وَالْعِزَّةِ وَالْعَظَمَةِ وَالْإِرَادَةِ وَالْحِكْمَةِ وَالْحِلْمِ وَالْمُلْكِ؛ الْعِبَارَاتُ فِيهِ سَوَاءٌ؛ يُقَالُ: لَهُ عِلْمٌ عَلَى أَنَّهُ عَالِمٌ، وَقُدْرَةٌ عَلَى أَنَّهُ قَادِرٌ، وَعِزَّةٌ عَلَى أَنَّهُ عَزِيزٌ، وَحِكْمَةٌ عَلَى أَنَّهُ حَكِيمٌ، وَعَظَمَةٌ عَلَى أَنَّهُ عَظِيمٌ، وَمُلْكٌ عَلَى أَنَّهُ مَالِكٌ. وَمَا لَمْ نَذْكُرْ نَظِيرُ مَا ذَكَرْنَا.

العبارات عن العزة

الْعِزَّةُ صِفَةُ ذَاتٍ وَصِفَةُ فِعْلٍ. أَمَّا مَوْضِعُ صِفَةِ فِعْلٍ فِيهِ فَقَوْلُهُ: «سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ»؛ فَقَدْ جَعَلَ الْعِزَّةَ هَا هُنَا مَرْبُوبَةً، وَكُلُّ مَا كَانَ مَرْبُوباً فَهُوَ فِعْلٌ. وَقِيلَ: الْعِزَّةُ الْمَلَائِكَةُ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ. وَلَا يَجُوزُ فِي شَيْءٍ مِنْ صِفَاتِ الذَّاتِ أَنَّهُ رَبُّهُ، وَلَا يُقَالُ إِنَّهُ رَبُّ قُدْرَتِهِ وَإِرَادَتِهِ وَعَظَمَتِهِ؛ لِأَنَّ كُلَّ مَا كَانَ مَرْبُوباً فَهُوَ مُحْدَثٌ، وَالْقُدْرَةُ عَلَيْهِ جَارِيَةٌ. وَلَكِنْ يُقَالُ: سُبْحَانَ الرَّبِّ الْعَالِمِ وَالرَّبِّ الْعَزِيزِ وَالرَّبِّ الْقَادِرِ. وَالْعِزَّةُ فِي صِفَاتِ الذَّاتِ نَفْيُ الذِّلَّةِ؛ فَلَمْ يَزَلِ اللَّهُ غَيْرَ ذَلِيلٍ وَلَا ضَعِيفٍ. وَالْعِزَّةُ مِنْ بَابِ الْقُدْرَةِ؛ لِأَنَّهُ نَفْيُ الضَّعْفِ، وَكُلُّ ضَعِيفٍ مَقْهُورٌ.

باب الإرادة

الْإِرَادَةُ مِنْ صِفَاتِ الذَّاتِ النَّفْيِ الَّتِي لَمْ يَزَلْ بِهَا. وَهِيَ وَإِنْ كَانَتْ كَذَلِكَ فَهِيَ مُنْفَصِلَةٌ مِنَ الْعِلْمِ وَالْقُدْرَةِ؛ لِأَنَّ الْإِرَادَةَ خَرَجَتْ مِنْ تَأْوِيلِ الْقُدْرَةِ، وَلَكِنَّ الْقُدْرَةَ إِذَا ذُكِرَتْ بِشَبَهِ الْإِرَادَةِ جَمَعَتِ الْمُرَادَ الْآتِيَ، أَنَّكَ إِذَا قُلْتَ: أَرَادَ كَذَا وَكَذَا، تُثْبِتُ الْمُرَادَ كَائِناً. وَإِذَا ذُكِرَتِ الْقُدْرَةُ بِغَيْرِ ذِكْرِ الْإِرَادَةِ، لَمْ تُثْبِتْ أَنَّ مَقْدُورَهَا كَائِنٌ. وَالْإِرَادَةُ لِلْأَفَاعِيلِ فِي حَالِهَا وَالْأَفَاعِيلِ الْمُسْتَأْنَفَةِ كَمَا كَانَتِ الْقُدْرَةُ، وَلَيْسَ تَحْتَ الْإِرَادَةِ الْفِعْلُ كَمَا تَحْتَ الْقُدْرَةِ الْفِعْلُ. وَلَا تَكُونُ الْإِرَادَةُ لِشَيْءٍ إِلَّا كَانَ، وَالْقُدْرَةُ قَدْ تَكُونُ وَلَا يَكُونُ الْمَقْدُورُ عَلَيْهِ. فَهَذَا وَجْهُ انْفِصَالِهِمَا.

وَنَظِيرُ الْإِرَادَةِ، وَإِنْ كَانَتْ كَالْقُدْرَةِ إِلَّا أَنَّهَا تُشْبِهُ الْقُدْرَةَ إِذَا كَانَ كَائِناً؛ وَإِذَا قُلْتَ: إِنَّهُ خَبَرُ صِدْقٍ، كَانَتْ هَذِهِ التَّسْمِيَةُ تُوجِبُ كَوْنَ الْمُخْبَرِ عَنْهُ كَائِناً، لَيْسَ أَنَّ خَبَرَ الصِّدْقِ فِي عَيْنِهِ بِأَكْثَرَ مِنْ خَبَرِ الْكَذِبِ، وَلَكِنَّ الصِّدْقَ وَالْكَذِبَ يُثْبِتُ الْمُخْبَرَ عَنْهُ وَيَنْفِي الْمُخْبَرَ عَنْهُ. وَكَذَلِكَ إِرَادَتُهُ وَقُدْرَتُهُ.

وَأَمَّا قَوْلُنَا: عَزِيزٌ فَلَيْسَ تَحْتَهُ مَعْنًى مُثْبَتٌ، إِنَّمَا هُوَ نَفْيُ الذِّلَّةِ؛ لَيْسَ مَعْنَى تَدْبِيرٍ وَلَا

إحَاطَة لِشَيْءٍ، وَلَا خَبَرٍ عَنْ شَيْءٍ، وَلَا عِلْمٍ لِشَيْءٍ، إِلَّا أَنَّ ذَلِكَ إِذَا دُبِّرَ كَانَ عَزِيزاً يُؤُولُ إِلَى قَادِرٍ، فَيُنْفَى بِهِ الذِّلَّة، وَالذِّلَّة عَجْزٌ.

لأَنَّ الصِّفَات إِنَّمَا يُنْفَى بِهَا أَقْرَبُ الأُمُورِ إِلَيْهَا، وَإِنْ كَانَت الصِّفَةُ الْوَاحِدَةُ تُثْبِتُ الصِّفَاتِ أَجْمَعَ؛ وَذَلِكَ قَوْلُنَا: قَادِرٌ؛ لأَنَّ الَّذِي لَا يَعْلَمُ جَاهِلٌ، وَالْجَاهِلُ عَاجِزٌ، وَمُرِيدٌ لأَنَّ الَّذِي يَكُونُ لَهُ مَا لَا يُرِيدُ عَاجِزٌ، وَعَزِيزٌ لأَنَّ الْعَاجِزَ ذَلِيلٌ، وَحَكِيمٌ لأَنَّ الْعَاجِزَ لَيْسَ بِحَكِيمٍ، وَصَادِقٌ لأَنَّ الْكَذِبَ ضَعْفٌ وَعَجْزٌ وَذِلَّةٌ وَمَهَانَةٌ وَرَغْبَةٌ وَرَهْبَةٌ. وَإِنَّمَا فَرَّقْنَا ذِكْرَ الصِّفَاتِ لِئَلَّا تُجْمَعَ الصِّفَةُ وَتَفَرَّقَ، وَأَنَّ قَوْلَنَا: عَالِمٌ نَفْيُ الْجَهْلِ مِنْ غَيْرِ اسْتِنْبَاطٍ وَلَا تَأَمُّلٍ فِي مَعْرِفَتِهِ، وَاسْتِخْرَاجُ أَنَّهُ لَيْسَ بِجَاهِلٍ بِقَادِرٍ لَعَلَّهُ بَعِيدٌ بَعْدَ؛ فَلِذَلِكَ أَجْمَلْنَا وَفَسَّرْنَا..

العبارات عن الحلم

الْحِلْمُ صِفَةُ ذَاتٍ وَصِفَةُ فِعْلٍ.

أَمَّا صِفَةُ ذَاتٍ فَقِيلَ: حَلِيمٌ مِنْ تَأْوِيلِ عَالِمٍ. قَالَ تَعَالَى: ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾، وَالْحَلِيمُ الْعَاقِلُ، وَالْحَلِيمُ مِنْ تَأْوِيلِ عَالِمٍ. وَقَالَ:

﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَوَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾.

وَالْحَلِيمُ الْعَالِمُ، وَالْحَلِيمُ مِنْ نَفْيِ السَّفَهِ وَالْخِفَّةِ وَالنَّزَقِ وَالطَّيْشِ، فَلَمْ يَزَلِ اللَّهُ بِخِلَافِ هَذِهِ الصِّفَاتِ، فَلَمْ يَزَلْ حَلِيماً. فَحَلِيمٌ فِيمَا ذَكَرْنَا صِفَةٌ مِنْ صِفَاتِ الذَّاتِ.

وَأَمَّا حَلِيمٌ فِي صِفَاتِ الْفِعْلِ فَبِأَنْ يُعْصَى وَلَا يُعَجِّلُ بِالْعُقُوبَةِ وَيَصْفَحُ مِمَّنْ عَصَاهُ. وَلَوْ لَمْ يُعْصَ كَانَ بِصِفَةِ الْحِلْمِ فِي أَوَّلِيَّتِهِ وَأَزَلِيَّتِهِ؛ لِأَنَّهُ مُخَالِفٌ لِهَذِهِ الصِّفَاتِ الْمَذْمُومَةِ، وَكَانَ عَالِماً..

العبارات عن الكرم والجود

الْكَرَمُ وَالْجُودُ هُمَا مِنْ صِفَاتِ ذَاتِهِ، وَلَيْسَا مِنْ صِفَاتِ الأَفْعَالِ وَالْبَذْلِ، وَمَا بَسَطَ اللَّهُ

مِنَ الْفَضْلِ دَلَّ عَلَى ذَلِكَ، فَسُمِّيَ الْفَضْلُ جُودًا وَكَرَمًا، يُرَادُ بِذَلِكَ أَنَّهُ مِنْ كَرَمِهِ وَجُودِهِ. فَعَلى هَذَا لَمْ يَزَلِ اللَّهُ كَرِيمًا جَوَادًا.

وَقَدْ يُسَمَّى الْمَنْعُ بُخْلًا، يُقَالُ: مَنْ بَخِلَ مَنَعَ، وَاللَّهُ تَعَالَى لَا يُغْنِيهِ مَنْعٌ، وَلَا يَنْقُصُهُ بَذْلٌ. وَمِنْ جُودِهِ بَسْطٌ لِأَعْدَائِهِ، وَمِنْ كَرَمِهِ أَعْطَى مَعَ الْمَعْصِيَةِ، وَشَكَرَ مَا أَبْلَى، وَأَجْزَلَ الْجَزَاءَ.

وَنَظِيرُ مَا يُسَمَّى الْفِعْلُ جُودًا وَكَرَمًا إِذَا كَانَ عَنْ جُودٍ ظَهَرَ، قَالَ تَعَالَى وَهُوَ يُخْبِرُ عَنِ الْكُفَّارِ: (قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ)[1]، وَكَذَلِكَ يَظْهَرُ الْجُودُ بِالْبَذْلِ، كَمَا تَظْهَرُ الْبَغْضَاءُ بِالْقَوْلِ.

وَالْجُودُ مِنَ الْعِبَادِ إِنَّمَا هُوَ سَخَاوَةُ النَّفْسِ وَسُهُولَةُ ذَلِكَ عَلَيْهِ، وَالشُّحُّ ضِدُّهُ، وَالْأَشْيَاءُ يَسِيرَةٌ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى بَاذِلٌ لَهَا، فَعَنْ جُودٍ وَكَرَمٍ بَذَلَ..

العبارات عن الحكمة

الْحِكْمَةُ صِفَةُ ذَاتٍ وَصِفَةُ فِعْلٍ، فَالصِّفَةُ مِنْهُ فِي الذَّاتِ: الْعِلْمُ بِالْإِصَابَةِ وَوَضْعُ الْأَشْيَاءِ فِي مَوَاضِعِهَا، فَلَمْ يَزَلِ اللَّهُ حَكِيمًا. وَالْحِكْمَةُ: التَّدْبِيرُ الْمُتْقَنُ، وَسَمَّى اللَّهُ الْقُرْآنَ حَكِيمًا، قَالَ تَعَالَى: (وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّنَ الْأَنبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ)[2]

وَالْحِكْمَةُ مِنْ مَعْنَيَيْنِ: مِنْ مَعْنَى الْعِلْمِ بِالْإِصَابَةِ وَنَفْيِ الْخَطَإِ، وَأَنَّهُ مِمَّنْ لَا يُخْطِئُ فِي التَّدْبِيرِ، وَقَدْ كَانَ قَبْلَ التَّدْبِيرِ لَا يُخْطِئُ التَّدْبِيرَ، إِذِ التَّدْبِيرُ عَنْهُ مَنْفِيٌّ. فَلِمَاذَا ذَكَرْنَا زَعْمَنَا أَنَّ الْحِكْمَةَ صِفَةُ ذَاتٍ وَصِفَةُ فِعْلٍ وَقَدِ انْتَفَتِ الْقُدْرَةُ؟ مَعْنَى الْحِكْمَةِ: لِأَنَّ الْخَطَأَ عَجْزٌ، فَإِذَا قُلْتَ قَادِرٌ فَتَدَبَّرْتَ اللَّفْظَةَ وَصَحَّحْتَ مَعْنَاهَا أَفَادَكَ مَعْنَى الْحِكْمَةِ، وَالْحِكْمَةُ مِنْ صِفَاتِهِ فِي أَزَلِيَّتِهِ، إِذْ هِيَ مِنْ تَأْوِيلِ الْقَادِرِ.

1- الاية118 من سورة آل عمران (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ)

2- الاية 4\5 من سورة القمر (وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّنَ الْأَنبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ * حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ)

العبارات عن الملك

المُلْكُ مِنْ صِفَاتِ الذَّاتِ الَّتِي لَمْ يَزَلْ بِهَا، وَمَعْنَى المُلْكِ: القُدْرَةُ، فَلَمْ يَزَلِ اللَّهُ مَالِكًا، وَلَيْسَ المُلْكُ دَاخِلًا فِيهِ مَعْنَى الفِعْلِ، لِأَنَّهُ مَالِكٌ قَبْلَ الفِعْلِ، وَكَانَ مَالِكًا أَنْ يَفْعَلَ. وَجَائِزٌ أَنْ تَقُولَ: يَقْدِرُ أَنْ لَا يَفْعَلَ كَذَا وَكَذَا، وَلَا يَجُوزُ أَنْ تَقُولَ: يَقْدِرُ أَنْ لَا يَمْلِكَ كَذَا وَكَذَا، أَوْ يَزْدَادَ مُلْكًا، كَمَا تَقُولُ: تَدْبِيرُهُ اليَوْمَ أَكْثَرُ، وَلَا يَجُوزُ: مُلْكُهُ اليَوْمَ أَكْثَرُ. وَلَوْ فَنِيَ الخَلْقُ لَمْ يَجُزِ القَوْلُ بِأَنَّهُ لَا يَمْلِكُ بَقِيَّةَ شَيْءٍ، وَكَيْفَ يَبْتَدِئُ بَعْدَ الفَنَاءِ وَقَبْلَ الإِحْدَاثِ إِنْ كَانَ لَا يَمْلِكُ؟

وَالمُلْكُ مِنْ صِفَاتِ القُدْرَةِ، وَالقُدْرَةُ تُعَرِّفُهُ عَنْهَا بِأُمُورِ نَفْسِهَا أَرَادَتْ، وَتَجْمَعُ المُرَادَ بِذِكْرِ أَنَّهَا أَرَادَتْ نَفْسَهَا. القُدْرَةُ عِزَّةٌ، لِأَنَّ نَفْيَهَا ذِلَّةٌ، وَالذِّلَّةَ عَجْزٌ.

العبارات عن الحب والبغض والرحمة والسخط والولاية والعداوة

وَجُمْلَةُ ذَلِكَ: أَنَّ كُلَّ شَيْئَيْنِ وَصَفْتَ اللَّهَ بِهِمَا وَكَانَا جَمِيعًا فِي الوُجُودِ فَذَلِكَ فِعْلٌ. وَتَفْسِيرُ ذَلِكَ: أَنَّ هَذِهِ الجُمْلَةَ إِنَّمَا تُثْبَتُ فِي الوُجُودِ مَا يُحِبُّ وَيُبْغِضُ، فَلَوْ كَانَ كَوْنُ مَا يُحِبُّ مِنْ صِفَاتِ ذَاتِهِ وَصِفَاتِ القُدْرَةِ، كَانَ كَوْنُ مَا يُبْغِضُهُ نَاقِضًا لِتِلْكَ الصِّفَةِ. وَمِثْلُهُ لَوْ كَانَ مَا يَتَوَلَّى وَيُتَوَلَّى عَلَيْهِ مِنْ صِفَاتِ القُدْرَةِ كَانَ كَوْنُ مَا يُعَادَى عَلَيْهِ نَاقِضًا لِتِلْكَ الصِّفَةِ، وَكَذَلِكَ الرَّحْمَةُ وَالسَّخَطُ.

أَلَا تَرَى أَنَّا إِنَّمَا زَعَمْنَا أَنَّ العِلْمَ مِنْ صِفَاتِ ذَاتِهِ، وَلَسْنَا نَجِدُ فِي الوُجُودِ مَا لَا يَعْلَمُ، وَالقُدْرَةَ مِنْ صِفَاتِ الأَزَلِيَّةِ، فَلَيْسَ تَجِدُ فِي الوُجُودِ مَا لَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ، وَلَسْنَا نَصِفُهُ بِقُدْرَةٍ وَعَجْزٍ، كَمَا وَصَفْنَاهُ بِحُبٍّ وَبُغْضٍ وَرِضًا وَسَخَطٍ وَوِلَايَةٍ وَعَدَاوَةٍ.

وَلَا يَجُوزُ أَنْ تَقُولَ: يُرِيدُ كَذَا وَلَا يُرِيدُ كَذَا فِي شَيْءٍ مَوْجُودٍ، وَلَا يَجُوزُ: حَكِيمٌ فِي كَذَا وَغَيْرُ حَكِيمٍ فِي كَذَا، كَمَا قُلْنَا: رَاضٍ لِلإِيمَانِ، غَيْرُ رَاضٍ لِلْكُفْرِ، فَهَذَا الفَصْلُ.

وَالمَغْفِرَةُ وَالعَفْوُ وَالصَّفْحُ كَذَلِكَ، وَتَقُولُ: يَقْدِرُ أَنْ يَرْحَمَ وَيُعَذِّبَ وَيَرْضَى وَيَسْخَطَ وَيُوَالِيَ وَيُعَادِيَ، وَتَقُولُ: ارْحَمْنِي وَارْضَ عَنِّي وَلَا تَسْخَطْ عَلَيَّ، وَلَا يَجُوزُ أَنْ تَقُولَ: يَقْدِرُ أَنْ يَعْلَمَ وَلَا يَقْدِرُ أَنْ يُبْصِرَ.

وَجَائِزٌ أَنْ تَقُولَ: يَقْدِرُ أَنْ يَحْلُمَ فِي مَعْنَى الْفِعْلِ، بِأَنْ يَعْفُوَ عَنْهُ وَيُؤَخِّرَ عُقُوبَتَهُ، وَتَقُولُ: يَقْدِرُ أَنْ يُصِيبَ فِي التَّدْبِيرِ، يَعْنِي أَنْ يَفْعَلَ الْفِعْلَ الَّذِي هُوَ صَوَابٌ، وَجَمِيعُ أَفْعَالِهِ صَوَابٌ، وَإِنَّمَا تَأْوِيلُ هَذَا: يَقْدِرُ أَنْ يَفْعَلَ فِعْلًا مُتْقَنًا، وَكُلُّ مَا يَقْدِرُ أَنْ يَفْعَلَهُ فَإِنَّمَا يَقْدِرُ أَنْ يُتْقِنَهُ، وَإِنَّمَا يَقْدِرُ مَعْنَاهُ نَفْيُ الْعَجْزِ.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: مَا أَرَاكَ إِلَّا وَقَدْ فَصَلْتَ بَيْنَ صِفَاتِ الذَّاتِ وَصِفَاتِ الْفِعْلِ بِإِجْرَائِكَ الْقُدْرَةَ عَلَيْهِ وَالرَّغْبَةَ، أَفَمَا يَجُوزُ فِي الرَّغْبَةِ أَنْ تَقُولَ: اللَّهُمَّ أَرِدْ بِيَ الْخَيْرَ يَا وَلِيَّ الْخَيْرِ؟ أَوَ مَا يَجُوزُ أَنْ تَقُولَ: يَقْدِرُ أَنْ يُرِيدَ بِيَ الْخَيْرَ، وَلِيَّ الْخَيْرِ، وَأَنْتَ رَاغِبٌ إِلَيْهِ فِي ذَلِكَ؟.

الْجَوَابُ فِي الْمَسْأَلَةِ: إِنَّ اللَّفْظَةَ وَإِنْ كَانَتْ عَلَى الْإِرَادَةِ، فَالطَّلَبُ لِلْعَوَامِ نَظِيرُ قَوْلِكَ: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لَنَا عِلْمَكَ فِينَا»، فَاللَّفْظَةُ عَلَى الْعِلْمِ وَالطَّلَبُ عَلَى الْمَعْلُومِ. وَنَظِيرُ قَوْلِكَ: «اللَّهُمَّ أَنْتَ رَجَائِي» وَإِنَّمَا عَنَى: أَنْتَ الْمَرْجُوُّ. وَقَالَ: ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ [1]، وَالْيَقِينُ مَا فِي الْقَلْبِ، وَإِنَّمَا أَرَادَ الْمُوقَنَ بِهِ مِنَ الْمَوْتِ. وَمِثْلُهُ مِنْ كَلَامِ النَّاسِ: «أَتَيْتُكَ بِشَهْوَتِكَ»، وَإِنَّمَا أَرَادَ الْمُشْتَهَى، و«أَتَيْتُكَ بِإِرَادَتِكَ»، وَإِنَّمَا أَرَادَ الْمُرَادَ. فَهَذَا الَّذِي ذَكَرْنَا مِنْ صِفَاتِ الذَّاتِ مِمَّا غُلِطَ فِيهِ لِمَا أُدْخِلَ فِيهِ مِنَ الرَّغْبَةِ، وَلَمْ أُدْخِلِ الرَّغْبَةَ فِي: أَعْلَمَ وَأَقْدَرَ، وَأَدْخِلِ فِي الْإِرَادَةِ قَوْلُهُ: ﴿لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَاصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ [2]، فَقَالُوا: أَلَا تَرَوْنَهُ فَعَلًا بِإِدْخَالِهِ فِيهِ: لَوْ أَرَدْتَ وَلَوْ شِئْتَ، وَلَا يَجُوزُ: لَوْ قَدَرْتَ؟

قِيلَ: هَذَا نَظِيرُ قَوْلِهِ: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ﴾ [3]، أَيْ: لَوْ كَانَ عِلْمُهُ فِيهِمْ، وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى﴾ [4] أَيْ: لَوْ شَاءَ أَنْ يَجْمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى لَجَمَعَهُمْ، وَإِنَّمَا هَذَا إِخْبَارٌ عَنِ الْقُدْرَةِ.

1- الاية 99 من سورة الحجر

2- الاية 4 من سورة الزمر (لَّوْ أَرَادَ اللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۚ سُبْحَانَهُ ۖ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ)

3- الاية 23 من سورة الأنفال (وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ)

4- الاية 35 من سورة الأنعام (وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُم بِآيَةٍ ۚ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ)

العبارات عن الملك

الْمُلْكُ صِفَةُ ذَاتٍ وَصِفَةُ فِعْلٍ. فَالصِّفَاتُ مِنْهُ فِي الذَّاتِ: السُّلْطَانُ وَالْقُدْرَةُ، فَلَمْ يَزَلِ اللَّهُ لَهُ السُّلْطَانُ وَالْقُدْرَةُ. وَالْمُلْكُ فِي الْفِعْلِ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾. وَالْمُلْكُ فِي تَأْوِيلِ أَنَّهُ مَالِكُ فِعْلٍ. وَكُلُّ مَا كَانَ مِنْ صِفَاتِ الذَّاتِ لَا يَجُوزُ أَنْ يُقَالَ فِيهِ: يَمْلِكُهُ وَلَا لَا يَمْلِكُهُ؛ لِأَنَّهُ لَا يَجُوزُ أَنْ يُقَالَ: يَمْلِكُ عِلْمَهُ وَقُدْرَتَهُ وَعِزَّتَهُ، وَلَا يُقَالُ: لَا يَمْلِكُهُ، لِأَنَّ لَفْظَةَ: «يَمْلِكُهُ» وَلَا «لَا يَمْلِكُهُ» إِبَانَةٌ لِهَذِهِ الْأُمُورِ وَجَعْلُهَا غَيْرَهُ مُضَافًا إِلَيْهِ، فَإِذَا لَمْ تَثْبُتْ مَعْنًى غَيْرَ اللَّهِ مُضَافًا إِلَيْهِ لَمْ يَكُنْ لِقَوْلِهِ: «لَا يَمْلِكُهُ» مَعْنًى.

إِنْ سَأَلَ سَائِلٌ فَقَالَ: أَرَأَيْتَ إِذَا جَعَلْتَ ضِدَّ «يَعْلَمُ»: «يَجْهَلُ»، وَضِدَّ «الْعِزَّةِ»: «الذِّلَّةَ»، وَضِدَّ «الْحِكْمَةِ»: «الْخَطَأَ»، وَضِدَّ «الْقُدْرَةِ»: «الْعَجْزَ»، فَمَا ضِدُّ «يُرِيدُ»؟

قِيلَ: بِهِ الْإِبَاءُ بِالْعَجْزِ وَالِاسْتِكْرَاهِ وَالْقُدْرَةِ.

فَإِنْ قَالَ: وَكَيْفَ كَانَ ضِدُّ «يُرِيدُ» الْعَجْزَ دُونَ الْكُرْهِ؟

قِيلَ لَهُ: لَمَّا أَنْ كَانَ «يُرِيدُ» مِنْ صِفَاتِ الْقُدْرَةِ، كَانَ ضِدُّ «يُرِيدُ» الْعَجْزَ؛ لِأَنَّ الْعَجْزَ ضِدُّ الْقُدْرَةِ. أَلَا تَرَى أَنَّكَ إِذَا قُلْتَ: «لَوْ شَاءَ كَذَا وَكَذَا لَكَانَ»، كَانَ إِنَّمَا تُخْبِرُ عَنِ الْقُدْرَةِ؟ فَإِنْ قَالَ الْقَائِلُ: «لَوْ شَاءَ لَمْ يَكُنْ»، فَأَرَادَ نَفْيَ الْأَوَّلِ كَانَ قَدْ أَثْبَتَهُ عَاجِزًا. وَلَيْسَ ضِدُّ الْإِرَادَةِ الْكُرْهُ؛ لِأَنَّهُ قَدْ كَانَ مَا هُوَ كَارِهٌ. فَلَوْ كَانَ كَوْنُ مَا يُرِيدُ مِنْ صِفَاتِ الْقُدْرَةِ، فَإِنَّ كَوْنَ مَا يَكْرَهُ مِنْ صِفَاتِ الضَّعْفِ، وَتَأْوِيلُ «كَرِهَ» مِثْلُ تَأْوِيلِ «سَخِطَ»، وَقَدْ كَانَ مَا يَسْخَطُ. وَتَقُولُ: كَرِهَ اللَّهُ الْمَعْصِيَةَ وَأَرَادَ كَوْنَهَا، فَقَدْ جَامَعَتِ الْإِرَادَةُ لِكَوْنِهَا كَرَاهِيَتَهَا، فَلَيْسَ ضِدُّ الْإِرَادَةِ الْكُرْهُ. أَلَا تَرَى أَنَّ الْإِرَادَةَ لَوْ جُعِلَتْ ضِدَّ الْكَرَاهِيَةِ فَقُلْتَ: «لَمْ يَزَلْ لَا يُرِيدُ كَذَا وَكَذَا»، جَعَلْتَهُ كَارِهًا لِذَلِكَ فِي الْقِدَمِ، فَتَجْعَلُ مَا يَكْرَهُهُ بِرِضَاهُ، فَيَصِيرُ الرِّضَى وَالْكَرَاهِيَةُ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ مِنَ الصِّفَاتِ الَّتِي لَمْ يَزَلْ بِهَا، وَمَا تَضَادَّا فَلَيْسَ بِقَدِيمٍ بِدُخُولِ الْعَدَدِ عَلَيْهِ.

إِنْ سَأَلَ سَائِلٌ فَقَالَ: أَرَأَيْتَ لَوْ جَعَلْتَ الرَّحْمَةَ صِفَةَ فِعْلٍ، لَوْ لَمْ يَعْصِ، أَكَانَ يَكُونُ رَحِيمًا؟ وَهَلْ كَانَ يَرْحَمُ؟

قِيلَ لَهُ: نَعَمْ. لَيْسَ مَعْنَى الرَّحْمَةِ الصَّفْحَ عَنِ الْإِجْرَامِ فَقَطْ، وَقَدْ يُسَمَّى الْمَطَرُ رَحْمَةً. وَقَالَ: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾[1]، وَتُسَمَّى الْجَنَّةُ رَحْمَةً، وَكَشْفُ الْأَوْجَاعِ وَالْإِسْقَامِ رَحْمَةً، وَالرَّحْمَةُ تَتَصَرَّفُ فِي مَعَانٍ، وَقِيلَ: «لِلَّهِ مِائَةُ رَحْمَةٍ»، فَلَوْ لَمْ يَعْصِ كَانَ يَكُونُ رَحِيمًا بِمَعْنَى مَا ذَكَرْنَا.

فَإِنْ قَالَ: أَفَرَأَيْتَ لَوْ لَمْ يَعْصِ، أَكَانَ يَصْفَحُ عَنْ بَعْضِ الذُّنُوبِ وَيَغْفِرُهَا؟

قِيلَ: هَذَا خَطَأٌ، لَمْ يَكُنْ مَعْنَى: «يَغْفِرُهُ»، وَلَكِنَّهُ كَانَ يَكُونُ رَحِيمًا بِمَعْنَى مَا ذَكَرْنَا، إِلَّا أَنْ تَكُونَ تُسَمَّى الْمَغْفِرَةُ جِنْسًا مِنَ الثَّوَابِ وَالْإِفْضَالِ، وَلَمْ يَكُنْ لِيَكُونَ إِلَّا أَنْ يَعْصِيَ فَيَغْفِرَ؛ لِأَنَّهُ قَدَّرَ الْمَعَاصِيَ وَالْمَغْفِرَةَ وَأَحَبَّ الْإِفْضَالَ وَالْعَفْوَ. وَأَمَّا الْجُودُ وَالْكَرَمُ وَالْإِفْضَالُ فَصَحِيحٌ.

فَإِنْ قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ الْإِفْضَالِ أَصِفَةُ فِعْلٍ؟ وَالْجُودُ صِفَةُ ذَاتٍ؟ وَإِنَّمَا يَحْدُثُ الْإِفْضَالُ عَنِ الْجُودِ كَمَا تَحْدُثُ الْأُمُورُ عَنْ إِرَادَتِهِ وَقُدْرَتِهِ، وَقَدْ يُسَمَّى الْإِفْضَالُ جُودًا وَكَرَمًا، يُرَادُ بِذَلِكَ أَنَّهُ كَانَ عَنْ جُودٍ، كَمَا يُسَمَّى قَوْلُ اللِّسَانِ حُبًّا وَبُغْضًا، يُرَادُ: عَنْ بُغْضٍ حَدَثَ وَعَنْ حُبٍّ حَدَثَ..

العبارات عن العدل

يُقَالُ: «اللَّهُ عَدْلٌ لَا يَجُورُ»، وَلَا يُقَالُ: «اللَّهُ عِلْمٌ وَلَا قُدْرَةٌ وَلَا عَظَمَةٌ»، وَإِنَّمَا تَأْوِيلُ: «اللَّهُ عَدْلٌ»، أَيْ: أَنَّهُ عَادِلٌ، وَمِثْلُهُ: «اللَّهُ حَقٌّ وَخَيْرٌ وَأَبْقَى». وَإِنَّمَا قُلْنَا: «الْعِلْمُ صِفَةٌ لَهُ فِي ذَاتِهِ»؛ لِأَنَّهُ لَا يُقَالُ: «لَهُ عِلْمٌ»، وَقِيلَ: «الْعِلْمُ صِفَةٌ لَهُ»، وَكَذَلِكَ قِيلَ فِي الْقُدْرَةِ؛ لِأَنَّكَ لَا تَقُولُ: «هُوَ قُدْرَةٌ»، وَقِيلَ: «الْقُدْرَةُ صِفَةٌ». فَلَمَا قِيلَ: «اللَّهُ عَدْلٌ»، لَمْ يَجُزْ أَنْ يُقَالَ: إِنَّ الْعَدْلَ صِفَةٌ لَهُ، وَلَكِنَّ الْعَدْلَ مَوْصُوفٌ بِأَنَّهُ عَادِلٌ، يُرَادُ أَنَّ الْجَوْرَ مَنْفِيٌّ عَنْهُ فِي أَزَلِيَّتِهِ؛ لِأَنَّ الْجَوْرَ جَهْلٌ وَخَطَأٌ، وَالْجَوْرُ وَالْجَهْلُ مَنْفِيَّانِ عَنْهُ فِي الْقِدَمِ. وَلِلْعَدْلِ مَعْنًى فِي التَّدْبِيرِ وَهُوَ الصَّوَابُ، وَاللَّهُ تَعَالَى مُصِيبٌ فِي تَدْبِيرِهِ؛ لِأَنَّ الْمُخْطِئَ جَاهِلٌ، وَالْجَاهِلُ مُحْدَثٌ مِنْهُ الْجَوْرُ. فَلَمْ يَزَلِ اللَّهُ عَدْلًا، أَيْ: أَنَّهُ لَمْ يَزَلْ بِالصِّفَاتِ الَّتِي لَا يُخْطِئُ فِي التَّدْبِيرِ، فَعَدْلٌ مِنْ تَأْوِيلِ: لَيْسَ بِجَاهِلٍ وَلَا مُخْطِئٍ.

1- الآية رقم 26 من سورة آل عمران

العبارات عن الصدق

الصِّدْقُ صفَةٌ فِي الْفعْل؛ لأَنَّ الصِّدْقَ إنَّمَا يكُونُ فِي الْخَبَر، وَالْخَبَرُ حَدَثٌ. وَلَا يَجُوزُ أَنْ يُقَالَ: كَانَ قَبْلَ الْخَبَرِ غَيْرَ صَادق؛ لأَنَّ تَأْويلَ هَذَا إنَّمَا هُوَ إخْبَارٌ عَنْ غَيْرِ حَقٍّ، وَهَذَا لَا يَجُوزُ. فَالْكَذبُ وَإنْ كَانَ جَهْلًا وَعَجْزًا فَهُوَ جَهْلُ فعْل، وَذَلكَ مَنْفيٌّ عَنْهُ فِي الْقدَم. فَلنَفْي الْجَهْل وَالْعَجْزِ عَنْهُ فِي الْقدَم بَطَلَ أَنْ يَكْذبَ فِي الْخَبَرِ. فَلَمَّا أَنْ كَانَ لَا تَأْويلَ للصِّدْقِ إلَّا أَنْ يُخْبِرَ فَتَأْتِي الْأُمُورُ عَلَى مَا أَخْبَرَ، لَمْ يَجُزْ لَنَا أَنْ نُثْبِتَ الصِّدْقَ فِي الْقدَمِ كَمَا أَثْبَتْنَا الْعلْمَ وَالْقُدْرَةَ.

العبارات عن صفات الذات

لَا يُقَالُ: «عَلمَ بقُدْرَة»؛ لأَنَّ الْعلْمَ لَيْسَ بفعْل فَيَجْرِيَ ذَلكَ عَلَيْه. وَلَا يَجُوزُ: «قَدَرَ بعلْم»؛ لأَنَّهُ لَيْسَ بحَدَث وَلَا فعْل فَيَجْرِيَ ذَلكَ عَلَيْه، وَلَكنَّهُ «قَدَرَ وَهُوَ عَالمٌ»؛ لأَنَّ الْعلْمَ قَدْ يَكُونُ بالْحَديث وَالْقَديم. وَلَا يَجُوزُ: «شَاءَ بقُدْرَة»؛ لأَنَّ الْمَشيئَةَ لَيْسَتْ بفعْل فَيَجْرِيَ ذَلكَ عَلَيْه، إلَّا عَلَى تَأْويلَ: «شَاءَ بقُدْرَة»، أَيْ: قَدَرَ بقُدْرَة، كَمَا تَقُولُ: «عَلمَ بعلْم». وَكَذَلكَ لَا يَجُوزُ: «سَمعَ بمَشيئَة وَلَا بَصرٍ بمَشيئَة». وَجَائزٌ: «حَكَمَ بمَشيئَة»؛ لأَنَّ الْأَحْكَامَ فعْلٌ، وَكُلُّ مَا كَانَ فعْلًا جَازَ أَنْ يَكُونَ بمَشيئَة وَبقُدْرَة وَبعلْم. وَمَا خَرَجَ مِنَ الْفعْل يَفْسُدُ الْقَوْلُ فيه إلَّا عَلَى مثْل مَا ذَكَرْنَا، نَظيرَ: ﴿وَأَبْصِرْ﴾[1]؛ لأَنَّ «أَبْصَرَ» هُوَ عَلمَ، فَعَلمَ بعلْم، وَشَاءَ بقُدْرَة عَلَى مَا تَقَدَّمَ منْ عبَارَاتنَا فِي أَوَّل الْكتَاب مِنَ التَّفْسير.

وَكُلُّ مَا كَانَ منْ صفَات الذَّات لَا يَجُوزُ أَنْ يُقَالَ فيه: «لَوْ شَاءَ لَعَلمَ»، وَلَوْ شَاءَ مَا عَلمَ»، وَ»لَوْ شَاءَ لَقَدَرَ»، وَ»لَوْ شَاءَ مَا قَدرَ». وَكَذَلكَ نَظيرُهُ فِي صفَات الذَّات. وَلَا يَجُوزُ: «لَوْ شَاءَ لَازْدَادَ قُدْرَةً وَمُلْكًا وَعزَّةً وَعَظَمَةً». وَلَا يَجُوزُ: «أَرَادَ أَنْ يَكُونَ عَالمًا وَاحدًا قَديمًا وَعَزيزًا وَحَكيمًا وَمَالكًا»؛ لأَنَّ مَا ذَكَرْنَا لَيْسَ بفعْل، وَلَا يَكُونُ بالْإرَادَة إلَّا الْأَفْعَالُ. وَمَا لَمْ نَذْكُرْ فَعَلَى قيَاس مَا ذَكَرْنَا إذَا ذُكرَ الْأَمْرُ فَلَمْ يَكُنْ حَدَثًا، فَلَيْسَ مَا لَيْسَ بحَدَث بإرَادَة وَلَا بقُدْرَة. وَكَذَلكَ لَا يَجُوزُ: «بعلْم كَانَ قَديمًا وَحَكيمًا». وَيُقَالُ: «عَلمَ أَنَّهُ

1- الاية 38 من سورة مريم (أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَٰكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ)

قَدِيمٌ وَحَكِيمٌ وَعَظِيمٌ وَحَلِيمٌ»؛ لِأَنَّ تِلْكَ الْبَاءَ تُثْبِتُ الْفِعْلَ فَانْطَرَحَتْ هَذِهِ الْبَاءُ تُعَبِّرُ الْكَلَامَ، فَلِذَلِكَ صَحَّ الثَّانِي وَفَسَدَ الأَوَّلُ.

العبارات عن صفات أُخَرَ من صفات الذَّات

لَا يُقَالُ: «لِمَ عَلِمَ؟» وَلَا «لِمَ قَدرَ؟» وَلَا «لِمَ كَانَ عَزِيزًا وَحَكِيمًا وَمَالِكًا؟». وَكَذَلِكَ لَا يَجُوزُ: «أَحْسَنَ إِذْ عَلِمَ»، وَلَا «إِذْ قَدرَ»، وَلَا «إِذْ أَرَادَ». وَكَذَلِكَ فِي جَمِيعِ صِفَاتِ الذَّات. وَإِنَّمَا يَجُوزُ مَا ذَكَرْنَا فِي الأَفْعَالِ وَالإِحْسَانِ وَالإِفْضَالِ وَالامْتِنَانِ. فَخَطَأٌ أَنْ يُقَالَ: «امْتَنَّ عَلَيْنَا بِأَنْ عَلِمَ مَا نَصْنَعُ وَقَدرَ عَلَى مَا نَصْنَعُ وَكَانَ عَزِيزًا». وَيُقَالُ: «امْتَنَّ عَلَيْنَا أَنْ حَلُمَ»، يُرَادُ بِهِ رَفْعُ الْعُقُوبَةِ، وَفِيمَا كَانَ نَظِيرُهُ مِمَّا هُوَ صِفَةُ فِعْلٍ.

إِنْ سَأَلَ سَائِلٌ فَقَالَ: أَخْبِرُونَا عَنْ عِلْمِ اللَّهِ وَقُدْرَتِهِ، أَمَعْنًى وَاحِدٌ أَوْ مَعْنَيَانِ؟ فَوَاحِدٌ فِي هَذَا أَوْ اثْنَانِ؟ فَخَطَأٌ. وَذَلِكَ أَنَّ مَنْ قَالَ: «عِلْمُ اللَّهِ وَقُدْرَتُهُ مَعْنَيَانِ»، كَانَ قَدْ أَبَانَهُمَا مِنْهُ وَكَانَ الْخَالِقُ وَهُمَا ثَلَاثَةٌ، فَهَذَا فَاسِدٌ. وَلَوْ قَالَ: «عِلْمُ اللَّهِ وَقُدْرَتُهُ مَعْنًى وَاحِدٌ»، كَانَ ذَلِكَ فَاسِدًا؛ لِأَنَّ ذَلِكَ يُثْبِتُ أَنَّ الْعِلْمَ هُوَ الْقُدْرَةُ، فَمَا عَلِمَهُ فَقَدْ قَدرَ عَلَيْهِ، فَقَدْ عَلِمَ نَفْسَهُ، فَفِي ذَلِكَ يَقْدِرُ عَلَى نَفْسِهِ، فَهَذَا خَطَأٌ. وَأَيْضًا أَنَّ تَأْوِيلَ «عَلِمَ»: اسْتَبَانَ وَأَبْصَرَ، وَلَيْسَ فِي ذَلِكَ مَعْنَى تَدْبِيرٍ. وَتَأْوِيلُ «يَقْدِرُ»: أَنْ يُدَبِّرَ.

الْجَوَابُ فِي هَذَا قَدْ تَقَدَّمَ، وَذَلِكَ إِذَا قُلْنَا: «لَهُ عِلْمٌ» نَعْنِي أَنَّهُ عَالِمٌ، وَلَسْنَا نُثْبِتُ مَعْنًى غَيْرَ اللَّهِ مُضَافًا إِلَيْهِ، وَكَذَلِكَ «لَهُ قُدْرَةٌ»، وَلَسْنَا نُثْبِتُ إِلَّا أَنَّ اللَّهَ قَادِرٌ. فَلَمَّا أَنْ قُلْنَا: «عِلْمُهُ وَقُدْرَتُهُ»، كَانَتِ الْمَسْأَلَةُ كَأَنَّا أَثْبَتْنَا عِلْمًا غَيْرَ الْعَالِمِ وَقُدْرَةً غَيْرَ الْقَادِرِ، فَيَكُونُ الْمُتَبَايِنَانِ وَاحِدًا وَاثْنَيْنِ. وَلَوْ قَالَ: «الْعَالِمُ هُوَ الْقَادِرُ»، وَكَذَلِكَ «الْعَزِيزُ هُوَ الْحَكِيمُ»، وَ«الْمُرِيدُ هُوَ الْجَوَادُ». الْجَوَابُ فِي هَذَا أَنَّهَا مِثْلُ قَوْلِنَا: «اللَّهُ هُوَ الرَّحْمَنُ».

فَإِنْ قَالَ: «عِلْمُهُ غَيْرُ قُدْرَتِهِ»؟

قِيلَ: هَذَا أَيْضًا خَطَأٌ؛ لِأَنَّ لَفْظَةَ «غَيْرُ» عَلَى الإِبَانَةِ، وَمَعْنَى: «هُوَ غَيْرُ» يُثْبِتُ اثْنَيْنِ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ. وَإِنْ أَرَادَ الْمَنْفِيَّ مِنَ الْجَهْلِ غَيْرَ الْمَنْفِيِّ مِنَ الْعَجْزِ، فَلَا؛ فَيُنْفَى بِالْعِلْمِ الْجَهْلُ وَبِالْقُدْرَةِ الْعَجْزُ. وَكُلُّ جَهْلٍ عَجْزٌ، وَقَدْ نَفَى عَنِ الْجَهْلِ بِنَفْيِ عِبَارَةٍ عَنِ الْعَجْزِ. تَقُولُ:

«عَاجِزٌ عَنْ أَنْ يُدَبِّرَ» ، وَ»جَاهِلٌ بِالتَّدْبِيرِ» . فَاتِّفَاقُهُمَا حَيْثُ ذَكَرْنَا ، وَاخْتِلَافُهُمَا أَنَّ الْعِلْمَ لَا يُثْبِتُ التَّدْبِيرَ ، وَلَكِنَّ نَفْيَهُ يُثْبِتُ الْجَهْلَ وَالْعَجْزَ . فَإِذَا جَوَّزْنَا : «هَذَا غَيْرُ هَذَا» ، أَثْبَتْنَا الْعَدَدَ فِي الْقِدَمِ ، فَلِذَلِكَ أَبَيْنَا .

فَإِنْ قَالَ : «أَفَمَعْنَى أَنَّهُ يَعْلَمُ غَيْرُ مَعْنَى أَنَّهُ يَقْدِرُ؟»

قِيلَ : نَعَمْ . وَلَوْ قَالَ : «الْقُدْرَةُ غَيْرُ الْعِلْمِ»؟

قِيلَ : هَذَا خَطَأٌ .

فَإِنْ قَالَ : «فَمَا الْفَصْلُ بَيْنَ هَذَا وَبَيْنَ الْأَوَّلِ؟ قُلْتَ : لَا أَقُولُ : عِلْمُهُ غَيْرُ قُدْرَتِهِ ، وَقُلْتَ : مَعْنَى يَعْلَمُ غَيْرُ مَعْنَى يَقْدِرُ؟»

قِيلَ : إِنَّكَ لَمَّا أَنْ قُلْتَ : «عِلْمُهُ غَيْرُ قُدْرَتِهِ» ، أَدْخَلْتَ الْعَدَدَ فِي الْقِدَمِ وَلَمْ تَذْكُرْ مَعْلُومًا وَلَا مَقْدُورًا عَلَيْهِ . وَلَمَّا أَنْ قُلْتَ : «مَعْنَى يَعْلَمُ غَيْرُ مَعْنَى يَقْدِرُ» ، إِنَّمَا تَأْوِيلُهُ : مَا تَحْتَ «يَعْلَمُ» وَمَا تَحْتَ «يَقْدِرُ» . وَقُلْنَا : «مَعْنَى هَذَا غَيْرُ مَعْنَى هَذَا» لِأَنَّ تَحْتَ «يَقْدِرُ» التَّدْبِيرَ ، وَلَيْسَ تَحْتَ «يَعْلَمُ» التَّدْبِيرُ ، إِنَّمَا تَحْتَهُ الدَّرْكُ . فَلَمَّا أَنْ أَفَادَكَ «يَقْدِرُ» التَّدْبِيرَ وَلَمْ يُفِدْكَ «يَعْلَمُ» هَذِهِ الْإِفَادَةَ؟

قِيلَ : «مَعْنَى يَعْلَمُ غَيْرُ مَعْنَى يَقْدِرُ» .

وَكَذَلِكَ إِنْ سَأَلَ سَائِلٌ فَقَالَ : «مَعْنَى يُرِيدُ غَيْرُ مَعْنَى يَقْدِرُ؟»

قِيلَ : نَعَمْ . وَلَوْ قَالَ : «الْقُدْرَةُ غَيْرُ الْإِرَادَةِ»؟

قِيلَ : خَطَأٌ .

فَإِنْ قَالَ : «فَمَا الْفَصْلُ وَتَحْتَ يَقْدِرُ التَّدْبِيرُ وَتَحْتَ يُرِيدُ التَّدْبِيرُ؟»

قِيلَ لَهُ : إِنَّ «يَقْدِرُ» إِنَّمَا هُوَ يَقْدِرُ أَنْ يُدَبِّرَ ، وَلَيْسَ فِيهِ إِيجَابُ مَقْدُورٍ عَلَيْهِ . وَ»يُرِيدُ» إِنَّمَا هُوَ يُرِيدُ أَنْ يُدَبِّرَ ، وَلَكِنْ فِيهِ إِيجَابُ الْمُرَادِ . فَانْفَصَلَا لَمَّا أَوْجَبَ أَحَدُهُمَا وَلَمْ يُوجِبْهُ الْآخَرُ ، وَلَا أَنْفَاهُ بِالْغَيْرِ ، إِنَّمَا أَثْبَتْنَاهُ لِمَا تَحْتَ الْإِرَادَةِ مِمَّا لَمْ تُثْبِتْهُ وَاجِبًا تَحْتَ الْقُدْرَةِ .

فَإِنْ قَالَ : «أَفَمَعْنَى قَوْلِكَ : اللَّهُ قَدِيمٌ ، أَهُوَ غَيْرُ مَعْنَى قَوْلِكَ : اللَّهُ قَادِرٌ؟»

قِيلَ: لَا، لَيْسَ أَنَّ الْقَدِيمَ غَيْرُ الْقَادِرِ، وَلَكِنْ لَمَّا نَفَيْتَ مِنَ الْحَدَثِ بِالْقِدَمِ وَلَمْ تُثْبِتْ بِهَذَا النَّفْيِ قُدْرَةً وَلَا عِلْمًا. فَنَفَيْتَ بِقَوْلِكَ: «قَادِرٌ» الْعَجْزَ، فَتُثْبِتُ الْقُدْرَةَ عَلَى التَّدْبِيرِ، فَتَحْتَ لَفْظَةِ «قَادِرٌ» التَّدْبِيرُ، وَلَيْسَ تَحْتَ لَفْظَةِ «قَدِيمٌ» التَّدْبِيرُ، فَقُلْنَا: «هُوَ غَيْرُ» لِمَا ذَكَرْنَا.

فَإِنْ قَالَ: «أَرَأَيْتَ إِذَا قُلْتُ: اللَّهُ عَالِمٌ وَاللَّهُ قَادِرٌ وَعَزِيزٌ وَحَكِيمٌ وَمُرِيدٌ، هَلْ تُثْبِتُ بِهَذَا أَجْمَعَ فِي الْعَدَدِ إِلَّا وَاحِدًا؟»

قِيلَ: لَا.

فَإِنْ قَالَ: «فَمَا تَصْنَعُ بِهَذَا أَجْمَعَ إِذَا كُنْتَ لَا تُثْبِتُ إِلَّا وَاحِدًا؟»

قِيلَ: إِنَّمَا أَرَدْنَا الضُّرُوبَ الْمَنْفِيَّاتِ مِنَ الْجَهْلِ وَالْعَجْزِ وَانْفِصَالَ صِفَةِ الْخَلْقِ مِنْ صِفَةِ الْخَالِقِ. وَأَرَدْنَا بِإِظْهَارِ كُلِّ لَفْظَةٍ مِنْ هَذِهِ الْأَلْفَاظِ أَنْ نَفْصِلَهُ مِنَ الصِّفَةِ الْمَذْمُومَةِ. وَلَوْ شِئْتَ أَجْمَلْتَ ذَلِكَ كُلَّهُ فَقُلْتَ: «هُوَ قَادِرٌ وَلَيْسَ هُوَ كَالْخَلْقِ»، فَهَذِهِ جُمْلَةُ نَفْيٍ وَمَا ذَكَرْنَا تَفْسِيرُهَا. وَلَوْ قُلْتَ: «اللَّهُ»، لَمْ يَكُنْ كَلَامًا حَتَّى تَصِلَ بِهَذَا الْقَوْلِ تَثْبِيتًا أَوْ نَفْيًا فَيَكُونَ صِدْقًا أَوْ كَذِبًا. وَلَوْ قُلْتَ: «اللَّهُ قَدِيمٌ»، كَانَ صِدْقًا، وَكُنْتَ نَفَيْتَ أَنْ يَسْبِقَهُ شَيْءٌ وَأَنَّهُ الْأَوَّلُ. وَإِذَا قُلْتَ: «لَا قَدِيمَ إِلَّا هُوَ»، كَانَ أَوْضَحَ فِي النَّفْيِ؛ لِأَنَّ قَائِلًا لَوْ قَالَ: «اللَّهُ قَدِيمٌ»، لَمْ يَكُنْ نَفَى بِهَذَا الْقَوْلِ أَنْ يَكُونَ غَيْرُهُ قَدِيمًا، وَإِنَّمَا نَفَى أَنْ يَكُونَ كَانَ مِنْ بَدْءٍ. وَلَمَّا قَالَ: «لَا قَدِيمَ غَيْرُهُ»، كَانَ قَدْ أَثْبَتَ أَنَّهُ كَانَ وَحْدَهُ مِنْ غَيْرِ بَدْءٍ وَأَنَّ كُلَّ مَوْجُودٍ مُحْدَثٌ. وَإِذَا قُلْتَ: «اللَّهُ عَالِمٌ»، قَدْ أَرَدْتَ أَنَّ الْأُمُورَ لَا تَخْفَى عَلَيْهِ، وَلَمْ يُفِدْكَ ذَلِكَ بِقَوْلِي: «هُوَ قَدِيمٌ». فَلَوْ كَانَتْ هَذِهِ الْأَلْفَاظُ لَا تُثْبِتُ وَلَا تَنْفِي، كَانَ لَا حَاجَةَ لِي إِلَيْهَا، وَلَكِنَّهَا تُثْبِتُ وَتَنْفِي لَا عَلَى تَثْبِيتِ الْعَدَدِ. فَتُثْبِتُ لَفْظَةَ أَنَّهُ لَا يَجْهَلُ أَنَّهُ عَالِمٌ، وَلَيْسَ يُثْبِتُ عَدَدًا، وَلَكِنَّهُ يُثْبِتُ انْفِصَالَهُ مِمَّنْ لَا يَعْلَمُ. فَالتَّثْبِيتُ مِنْ جِهَتَيْنِ: جِهَةِ عَدَدٍ وَجِهَةِ انْفِصَالٍ. وَإِذَا قُلْتَ: «قَادِرٌ»، كُنْتَ قَدْ أَثْبَتَّهُ عَلَى غَيْرِ مَا كُنْتَ تُثْبِتُهُ عَلَيْهِ بَدْءًا مِمَّا لَمْ تَكُنْ نَفَيْتَهُ. فَهَذِهِ الصِّفَاتُ الَّتِي ذَكَرْنَا نَافِيَاتٌ لِلْعَدَدِ، وَلَيْسَتْ مُثْبِتَاتٍ لِلْعَدَدِ؛ لِأَنَّ الْعَدَدَ لَا يَجُوزُ فِي الْقِدَمِ، وَإِنَّمَا نَفَيْنَا مَعَانِيَ مَوْجُودَةً فِي الْحَدَثِ، فَلِهَذَا أَثْبَتْنَا الْعَدَدَ فِي النَّفْيِ وَلَمْ نُثْبِتِ الْعَدَدَ فِي التَّثْبِيتِ..

باب تصاريف الصِّفات

إنْ سَأَلَ سَائِلٌ فَقَالَ: أَخْبِرُونَا عَنْ هَذِهِ الصِّفَات، أَمُحْدَثَةٌ أَمْ قَدِيمَةٌ؟

قِيلَ: الصِّفَاتُ تَحْتَمِلُ مَعَانٍ، أَحَدُهَا: صِفَةُ نَفْيٍ وَوَصْفٍ، وَذَلِكَ قَوْلُهُمْ: «مَا أَحْسَنَ صِفَةَ فُلانٍ للشَّيْءِ»، يُرِيدُونَ: مَا أَحْسَنَ وَصْفَهُ لِلشَّيْءِ. وَالصِّفَةُ مِنْ مَعْنًى آخَرَ، وَهِيَ أَلْفَاظُ الشَّيْءِ كَاللَّوْنِ فِي الْمُلَوَّنِ وَالْحُسْنِ فِي الْحَسَنِ وَالطُولِ فِي الطَّوِيلِ. وَصِفَةٌ مِنْ مَعْنًى آخَرَ، وَهُوَ التُّقَى فِي التَّقِيِّ وَالْفُجُورُ فِي الْفَاجِرِ، فَهَذَا غَيْرٌ وَلَيْسَ (........).

فَإِنْ قَالَ: فَصِفَاتُهُ قَدِيمَةٌ أَمْ حَدِيثَةٌ؟

قِيلَ: لَا؛ لأَنَّ الصِّفَاتِ كَثِيرَةٌ، وَاللهُ وَاحِدٌ، لَمْ يَزَلْ عَلَى حَقِيقَةِ صِفَاتِنَا لَهُ مِنْ أَنَّهُ لَمْ يَزَلْ عَالِمًا، قَادِرًا، قَاهِرًا، عَزِيزًا، حَكِيمًا.

فَإِنْ قَالَ: فَإِنْ كَانَت الصِّفَاتُ مُحْدَثَةً، أَفَلَيْسَ عِلْمُهُ بِالْأُمُورِ حَدَثًا؟

قِيلَ: هَذَا خَطَأٌ؛ لأَنَّ الْحَدَثَ إِنَّمَا هُوَ صِفَاتُنَا لَهُ بِالْعِلْمِ وَالْقُدْرَةِ، وَاللهُ لَمْ يَزَلْ عَالِمًا وَقَادِرًا، فَالصِّفَةُ لَهُ بِالْقُدْرَةِ حَدَثٌ. وَلَسْنَا نُثْبِتُ مَعَانِيَ عَلَى عَدَدِ الصِّفَاتِ، وَلَكِنَّا نُثْبِتُنَا وَاحِدًا قَدِيمًا عَلَى حَقِيقَةِ صِفَاتِنَا لَهُ مِنْ أَنَّ الأُمُورَ لَا تَتَعَذَّرُ عَلَيْهِ وَلَا تُعْجِزُهُ وَلَا تَخْفَى عَلَيْهِ، وَنَفْيِ الذُّلِّ عَنْهُ وَالْخَطَأَ وَالطَّيْشَ وَالْإِبَاءَ لِمَا عَلِمَهُ كَائِنًا، فَهَذِهِ الصِّفَاتُ لِلهِ لَا لِغَيْرِهِ، وَهَذِهِ الصِّفَاتُ الْكَثِيرَةُ لله.

وَلَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ لِكُلِّ صِفَةٍ مَعْنًى؛ فَيَكُونَ الْعِلْمُ غَيْرَ الْقُدْرَةِ وَالْحِكْمَةُ غَيْرَ الْعِلْمِ، فَيَصِيرَ الْأَمْرُ إِلَى فَسَادِ الْقَوْلِ بِأَنْ لَا قَدِيمَ إِلَّا هُوَ. وَمِنْ فَسَادِ هَذَا أَنْ لَوْ كَانَت الصِّفَاتُ قَدِيمَةً، كَانَتْ حَالَّةً فِي ذَاتِهِ، وَإِنَّمَا تَحُلُّ الصِّفَاتُ فِي ذَاتِ الْعَالَمِ إِذَا كَانَ عِلْمُهُ غَيْرَهُ، أَوْ تَكُونَ الصِّفَاتُ أَبْعَاضًا، وَالْأَبْعَاضُ إِنَّمَا هُوَ لِلْمَحْدُودِ الَّذِي لَهُ نِهَايَةٌ، وَاللهُ يَتَعَالَى عَنِ الْحُدُودِ وَالنِّهَايَةِ سُبْحَانَهُ.

باب آخر من صفات الذَّات

وَلَا يُقَالُ: «جَمِيعُ عِلْمِ اللهِ»؛ لِأَنَّ الْجَمِيعَ يَجْرِي إِنَّمَا عَلَى الْعَدَدِ، وَ«كُلٌّ» مِثْلُ «جَمِيعٍ»،

وَلا يُقَالُ: «جَمِيعُ عِزَّتِهِ وَقُدْرَتِه وَإِرَادَتِه»، وَمَا كَانَ مِنْ صِفَاتِ الْأَزَلِيَّةِ فَلَيْسَ بِصِفَاتِ فِعْلٍ، فَإِذَا كَانَ الْكَلامُ خَطَأً أَنْ تُقَالَ: «كُلَّ عِلْمِ اللهِ»، وَ«كُلَّ قُدْرَةِ اللهِ»، وَ«كُلَّ إِرَادَتِه»، وَكَذَلِكَ لا يَجُوزُ أَنْ يُقَالَ ذَلِكَ فِي اللهِ، وَلَا يُقَالُ: «عِلْمُ اللهِ فِي اللهِ»، وَلا «بِاللهِ»، وَلا «مَعَ اللهِ»؛ لِأَنَّ «مَعَ» إِنَّمَا هُوَ عَلَى الاثْنَيْنِ فَصَاعِدًا، وَلا يُقَالُ: «عِلْمُ اللهِ بَائِنٌ مِنَ اللهِ»، وَكَذَلِكَ فِي صِفَاتٍ أَجْمَعَ. وَيُقَالُ: «عِلْمُ اللهِ مِنَ اللهِ»، كَانَ هَذَا، فَإِذَا ارْتَفَعَ مِنْ هَذَا الْمَوْضِعِ كَانَ الْكَلامُ خَطَأً. وَلَا يَجُوزُ: «لَمْ يَزَلِ اللهُ وَعِلْمُهُ»، وَ«لَمْ يَزَلِ اللهُ وَقُدْرَتُهُ»، وَ«لَمْ يَزَلِ اللهُ وَعِزَّتُهُ»، وَإِذَا ذَكَرْتَ اللهَ وَالْعِلْمَ فَقُلْتَ: «لَمْ يَزَلِ اللهُ وَكَذَا وَكَذَا»، كَانَ ذَلِكَ يُثْبِتُ الْعَدَدَ مَعَهُ فِي الْأَزَلِ. وَلَوْ قُلْتَ: «لَمْ يَزَلْ عِلْمُ اللهِ»، فَأَفْرَدْتَ الْكَلَامَ، كَانَ صَوَابًا وَحَقًّا. فَإِذَا أَجْمَعْتَ فَقُلْتَ: «لَمْ يَزَلِ اللهُ وَعِلْمُهُ»، أَوْهَمَتِ اللَّفْظَةُ يُثْبِتُ مَعْنَيَيْنِ، فَفَسَدَ. وَكَذَلِكَ فِي جَمِيعِ الصِّفَاتِ. فَإِذَا أَجْمَعْتَ بَيْنَ الصِّفَتَيْنِ فَقُلْتَ: «لَمْ يَزَلْ عِلْمُ اللهِ وَقُدْرَتُهُ وَعَظَمَتُهُ وَإِرَادَتُهُ»، كَانَ بِهَذَا جَائِزًا، كَانَ هَذَا مُنْفَصِلًا مِنْ قَوْلِكَ: «اللهُ وَعِلْمُهُ»؛ وَذَلِكَ لِمَا أَنَّكَ إِذَا قُلْتَ: «اللهُ وَقُدْرَتُهُ»، كَانَ السَّابِقُ إِلَى الْقَلْبِ وَأَقْرَبُ الْأُمُورِ إِلَى الْوَهْمِ غَيْرَهُ. وَإِذَا قُلْتَ: «لَمْ يَزَلْ عِلْمُهُ وَقُدْرَتُهُ»، كُنْتَ إِنَّمَا أَثْبَتَّ أَنَّهُ لَمْ يَسْتَحْدِثِ الْعِلْمَ وَالْقُدْرَةَ، وَإِنْ كَانَ الْوَاوُ قَدْ دَخَلَ فِيهِ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ لا يُثْبِتُ شَيْئًا مَعَ الْقَدِيرِ، فَهَذِهِ صِفَةٌ وَالْعَدَدُ صِفَةٌ. أَلَا تَرَى أَنَّكَ تَرْجِعُ إِلَى مَا ذَكَرْنَا إِلَى غَيْرِ إِبَانَتِه مِنَ الْمَوْصُوفِ. وَإِذَا قُلْتَ: «هُوَ وَعِلْمُهُ»، كُنْتَ قَدْ أَبَنْتَهُ مِنَ الْمَوْصُوفِ، فَهَذَا الْفَصْلُ. وَإِذَا قُلْتَ: «لَمْ يَزَلِ اللهُ لَهُ عِلْمٌ وَلَهُ قُدْرَةٌ»، لَمْ يَكُنْ مِثْلَ قَوْلِكَ: «لَمْ يَزَلْ هُوَ وَعِلْمُهُ»؛ لِأَنَّكَ إِذَا قُلْتَ: «لَمْ يَزَلْ لَهُ عِلْمٌ»، كُنْتَ قَدْ وَصَفْتَهُ غَيْرَ جَاهِلٍ؛ لِأَنَّ الَّذِي لا عِلْمَ لَهُ بِالْأُمُورِ. فَإِذَا قُلْتَ: «لَمْ يَزَلْ لَهُ عِلْمٌ»، أَيْ أَنَّهُ لَمْ يَسْتَحْدِثْ عِلْمًا بِهِ عَلِمَ الْأَشْيَاءَ، فَهَكَذَا تَقُولُ. وَإِذَا قُلْتَ: «هُوَ وَعِلْمُهُ»، فَإِنَّ ذَلِكَ يَتَوَسَّمُ الْعَدَدَ مَعَهُ، فَهَذَا وَجْهُ انْفِصَالِهِمَا.

إِنْ سَأَلَ سَائِلٌ فَقَالَ: بِمَ عَلِمَ الْأَشْيَاءَ؟

قِيلَ لَهُ: بِنَفْسِهِ عَلِمَ الْأَشْيَاءَ لَا شَيْءَ غَيْرَهُ. وَمَعْنَاهَا أَنَّهُ عَلِمَ الْأَشْيَاءَ بِنَفْسِهِ أَنَّهُ الْعَالِمُ بِالْأَشْيَاءِ، وَأَنَّهُ لَمْ يَسْتَظْهِرْ عَلَى الْعِلْمِ بِآلَاتٍ وَلا مَعُونَةٍ. وَالْجَوَابُ فِي الْقُدْرَةِ عَلَى نَظِيرِ الْجَوَابِ فِي الْعِلْمِ، يُقَالُ: «قَدَرَ عَلَى الْأَشْيَاءِ بِنَفْسِهِ» عَلَى مِثْلِ مَا يُقَالُ: «دَبَّرَ الْأَشْيَاءَ

بَنفْسه» ، نَفَى بذَلِكَ أَنْ يَكُونَ دَبَّرَهُمْ بِآلَاتٍ وَلَا مَعُونَةٍ. وَقَوْلُنَا : «دَبَّرَ الْأَشْيَاءَ بِنَفْسِهِ» أَيْ لَمْ يُدَبِّرْهُمْ لِغَيْرِه.

فَإِنْ قَالَ: فَالَّذي بِهِ عَلِمَ هُوَ الَّذي بِهِ قَدَرَ؟

قِيلَ: إِنْ أَرَدْتَ مَعْنَى غَيْرُهُ بِه عَلِمَ وَبِه قَدَرَ فَخَطأٌ ، وَإِنْ أَرَدْتَ إِذَا كَانَ بِنَفْسِه عَلِمَ وَبِنَفْسِه قَدَرَ فَنَعَمْ. فَالَّذي بِه عَلِمَ هُوَ اللهُ بِه قَدَرَ، وَإِنَّ الذَّاتَ الْعَالِمَةَ هِيَ الذَّاتُ الْقَادِرَةُ. وَنَظِيرُهُ: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ﴾ ، يُقَالُ: إِنَّ اللهَ حَذَّرَنَا إِيَّاهُ. يُقَالُ: «أَسْأَلُكَ بِوَجْهِ اللهِ» ، تَأْوِيلُهُ: أَسْأَلُكَ بِاللهِ. وَمِثْلُهُ مِنْ كَلَامِ النَّاسِ: «أَتَيْتُكَ بِنَفْسِي». وَقَالَ آدَمُ وَحَوَّاءُ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا﴾[1]. وَكَذَلِكَ: «أَبْصَرَ الْأُمُورَ بِنَفْسِهِ» ، إِخْبَارٌ عَنْ أَنَّهُ لَيْسَ بِغَيْرِهِ عَلِمَ وَلَا قَدَرَ وَلَا سَمِعَ وَلَا أَبْصَرَ وَلَا أَحْكَمَ.

باب تصاريف الدرك

إِنْ سَأَلَ سَائِلٌ فَقَالَ: أَخْبِرُونَا عَمَّا يَعْلَمُهُ أَيَسْمَعُهُ، أَوْ مَا يَسْمَعُهُ أَيَعْلَمُهُ، أَيَعْلَمُهُ أَوْ مَا يَعْلَمُهُ أَيَرَاهُ؟

قِيلَ: أَمَّا مَا يَسْمَعُهُ فَقَدْ يُقَالُ فِيه: «يَعْلَمُهُ وَيُبْصِرُهُ» ، أَلَا تَرَى أَنَّهُمْ يَقُولُونَ: «أَمَا تَرَى مَا يَقُولُ فِي فُلَانٍ؟» فَيَجُوزُ الرُّؤْيَا فِي الْقَوْلِ، وَكَذَلِكَ: «أَمَا تُبْصِرُ مَا يَأْتِي بِه فُلَانٌ؟» وَ«مَا تُبْصِرُ مَا يَقُولُ لَكَ؟» وَلَا يَجُوزُ: «أَمَا تَسْمَعُ لَوْنَهُ؟» كَمَا جَازَ: «أَمَا تُبْصِرُ كَلَامَهُ؟» وَإِنَّمَا انْفَصَلَ لَفْظُ هَذَا مِنْ بَعْضٍ لَا لِاخْتِلَافِ الذَّاتِ، وَلَكِنْ لِمَا تَحْتَ «يَسْمَعُ» مِنْ مَعْنَيَيْنِ: أَحَدُهُمَا [قَبُولٌ] وَالْآخَرُ قَبُولُ دَرْكٍ، وَأَنَّ الْمُدْرَكَ صَوْتٌ. وَلَا يَجُوزُ «سَمِعَ» فِي مَعْنَى «قَبِلَ» إِلَّا فِي مَعْنَى الْكَلَامِ خَاصَّةً. وَيُقَالُ: «سَمِعَ اللهُ مَقَالَتَكَ» ، وَ«سَمِعَ اللهُ لِمَنْ حَمِدَهُ» ، وَلَا يُقَالُ: «سَمِعَ اللهُ صَلَاتَكَ» فِي مَعْنَى «قَبِلَ اللهُ صَلَاتَكَ» ؛ لَا لِانْفِصَالِ «قَبِلَ» فِي الصَّلَاةِ مِنْ مَعْنَى «قَبِلَ» فِي الْقَوْلِ، وَلَكِنَّهُمْ أَرَادُوا أَنَّ «يَسْمَعُ» تَحْتَهُ أَنَّ الْمَقْبُولَ كَلَامٌ وَصَوْتٌ. وَيُقَالُ: «اللهُ سَمِيعٌ وَسَامِعٌ وَمُسْتَمِعٌ وَيَسْمَعُ» ، فَإِمَّا «مُسْتَمِعٌ» قَالَ فِي كِتَابِهِ: ﴿وَأَنَا

1- الاية 23 من سورة الأعراف

مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ﴾[1]، فَإِمَّا «يَسْمَعُ» وَ«سَمِيعٌ» مِثْلُ «يَعْلَمُ» وَ«عَلِيمٌ»، وَ«سَامِعٌ» مِثْلُ «عَالِمٍ»، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى﴾[2]، فَمَعْنَى «أَسْمَعُ» عَلَى الْكَلامِ خَاصَّةً، وَ«أَرَى» يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ رُجِعَ بِهِ عَنِ الْكَلامِ؛ لأَنَّكَ تَقُولُ: «أَرَأَيْتَ مَا قُلْتَ؟» «أَرَأَيْتَ مَا جِئْتَ بِهِ؟» وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ «أَسْمَعُ» عَلَى الْكَلامِ وَ«أَرَى» عَلَى الأَعْمَالِ الَّتِي لا يُقَالُ إِنَّهَا تُسْمَعُ. وَأَعَمُّ صِفَاتِ الدَّرْكِ الْعِلْمُ، وَذَلِكَ أَنَّكَ تَقُولُ: «عَلِمَ اللَّوْنَ وَالصَّوْتَ وَالْحَرَّ وَالْبَرْدَ وَالْحَلاوَةَ وَالْحُمُوضَةَ وَالْحَرَكَةَ وَالسُّكُونَ»، وَتَقُولُ: «وَجَدَ اللَّوْنَ وَالصَّوْتَ»، وَلا تَقُولُ: «وَجَدَ الْحَرَّ وَالْبَرْدَ وَالْحَلاوَةَ وَالْحُمُوضَةَ». وَيَجِدُ الأَشْيَاءَ حَالَّةً فِي ذَاتِ الْخَلْقِ. وَ«يَعْلَمُ» يُطْلَقُ عَلَى الْجَمِيعِ، وَلا تَعْتَدَّ لِمَا ذُكِرَ لا مِنْ نَفْيِكَ وُجُودَ الْحَرِّ وَالْبَرْدِ. وَأَعَمُّ صِفَاتِ الدَّرْكِ الْعِلْمُ، وَأَعَمُّ صَوْتَ الذَّاتِ الْقُدْرَةُ، لانْتِظَامِ الْقُدْرَةِ لِغَيْرِهَا كَمَا يَنْتَظِمُ الْعِلْمُ كُلَّ دَرْكٍ.

إِنْ سَأَلَ سَائِلٌ فَقَالَ: لَمْ يَزَلِ اللهُ يَسْمَعُ الْكَلامَ؟

قِيلَ: نَعَمْ، لا عَلَى إِيجَابِ قَدْ مَرَّ الْكَلامُ، وَلَكِنْ عَلَى أَنَّهُ لَمْ يَسْتَحْدِثِ الدَّرْكَ لِلْكَلامِ، وَإِنَّمَا تَأْوِيلُ «سَمِعَ» «عَلِمَ»؛ لأَنَّكَ بِجَمْعِ الْمَسْمُوعِ مِنْ أَنَّهُ كَلامٌ وَصَوْتٌ، أَلا تَرَى أَنَّكَ تَقُولُ: «لَمْ يَزَلْ يَسْمَعُ الْكَلامَ».

فَإِنْ قَالَ: لَمْ يَزَلْ يَسْمَعُهُ كَائِنًا؟

قِيلَ: لا، وَلَكِنْ: «لَمْ يَزَلْ يَسْمَعُهُ يَكُونُ»، كَمَا تَقُولُ: «لَمْ يَزَلْ يَعْلَمُهُ يَكُونُ»، وَكَذَلِكَ: «لَمْ يَزَلْ يُبْصِرُ الأَشْيَاءَ وَيَرَاهَا»، لا عَلَى تَأْوِيلِ رَآهَا كَائِنَةً، وَلَكِنْ: «رَآهَا تَكُونُ». فَـ«سَمِعَ» وَ«أَدْرَكَ» وَ«عَرَفَ» وَ«أَحَاطَ» وَ«اسْتَبَانَ»، وَ«خَبِيرٌ» وَ«ذَاكِرٌ» لِلأَشْيَاءِ بِسَوَاءٍ. وَإِنَّمَا قُلْنَا: «ذَاكِرٌ»؛ لأَنَّ النِّسْيَانَ جَهْلٌ وَغَفْلَةٌ؛ فَلَمَّا أَنْ كَانَ لا يَغْفُلُ وَلا يَنْسَى؟ قِيلَ: «ذَاكِرٌ وَحَافِظٌ»؛ لأَنَّ خِلافَ «حَافِظٍ» أَيْضًا نَاسٍ.

1- الاية 15 من سورة الشعراء. ﴿فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنَا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ﴾

2- الاية 46 من سورة طه

باب مَا تستحيل فيه القدرة وما لا تستحيل

إِنْ سَأَلَ سَائِلٌ عَمَّا يَجُوزُ الْقَوْلُ بِأَنَّهُ يَقْدِرُ عَلَيْهِ وَمَا الَّذِي يُحِيلُ الْكَلَامَ فِيهِ؟

قِيلَ: أَمَّا كُلُّ أَمْرٍ يَكُونُ فَالْقُدْرَةُ عَلَيْهِ جَارِيَةٌ، وَكُلُّ أَمْرٍ لَا يَكُونُ مِمَّا الْقَوْلُ فِيهِ جَائِزٌ أَنْ لَوْ كَانَ كَيْفَ كَانَ يَكُونُ فَكَانَتْ صِفَتُهُ الَّتِي هُوَ عَلَيْهَا غَيْرَ زَائِلَة، فَتَقُولُ فِي ذَلِكَ: «يَقْدِرُ عَلَيْهِ». وَفِيمَا لَا يَكُونُ مِمَّا إِذَا تُكُلِّمَ عَلَيْهِ فَقِيلَ: إِنْ لَوْ كَانَ كَيْفَ كَانَ يَكُونُ فَكَانَتْ صِفَتُهُ الَّتِي هُوَ عَلَيْهَا الْيَوْمَ زَائِلَةً، فَهَذَا فَاسِدٌ. وَتَفْسِيرُ هَذِهِ الْجُمْلَة: إِنَّ قَائِلًا لَوْ قَالَ: «يَقْدِرُ أَنْ يَفْعَلَ مَا عَلِمَ أَنَّهُ لَا يَكُونُ؟» قِيلَ: نَعَمْ؛ مِنْ قِبَلِ أَنَّ ذَلِكَ يُثْبِتُ الْقُدْرَةَ وَلَا يُثْبِتُ الْفِعْلَ. فَإِذَا قِيلَ: «لَوْ فَعَلَ جَازَ أَنْ لَوْ فَعَلَ كَانَ لَا يَفْعَلُ إِلَّا وَهُوَ بِهِ عَالِمٌ؟» قِيلَ: يَقْدِرُ؛ لِأَنَّا وَجَدْنَا «لَوْ» مَدْخُولًا فِي الْكَلَامِ، فَقُلْنَا فِي هَذَا: «يَقْدِرُ عَلَيْهِ». وَلَوْ قَالَ قَائِلٌ: «يَقْدِرُ أَنْ يَجْهَلَ؟» قِيلَ لَهُ: أَحَلْتَ؛ لِأَنَّكَ لَا تَقْدِرُ أَنْ تَقُولَ: «فَلَوْ جَهِلَ كَانَ غَيْرَ جَاهِلٍ»، كَمَا تَقُولُ: «لَوْ فَعَلَ مَا عَلِمَ أَنَّهُ لَا يَفْعَلُهُ الْيَوْمَ كَانَ لَا يَفْعَلُهُ إِلَّا عَنْ عِلْمٍ»، أَلَا تَرَى أَنَّكَ تَقُولُ: «أَمَرَ بِهِ، عَلِمَ أَنَّهُ لَا يَكُونُ»، وَلَا يَجُوزُ أَنْ تَقُولَ: «أَمَرَ بِتَجْهِيلِهِ»؛ لِأَنَّ الْمَأْمُورَ بِهِ دَاخِلٌ فِي الْعِلْمِ أَنْ لَوْ كَانَ كَيْفَ كَانَ يَكُونُ.

وَقَدْ قِيلَ: لِمَا عَلِمَ أَنَّهُ لَا يَكُونُ أَنْ لَوْ كَانَ كَيْفَ كَانَ يَكُونُ، وَلَا يَجُوزُ أَنْ تَقُولَ: «لِمَا يُجْهَلُ أَنْ لَوْ كَانَ كَيْفَ كَانَ يَكُونُ»، فَلِذَلِكَ جَوَّزْنَا الْقُدْرَةَ عَلَى مَا عَلِمَ أَنَّهُ لَا يَكُونُ؛ لِأَنَّهُ دَاخِلٌ فِي الْعِلْمِ أَنْ لَوْ كَانَ كَيْفَ كَانَ يَكُونُ. وَمِثْلُهُ لَوْ قَالَ قَائِلٌ: «يَقْدِرُ أَنْ يُمِيتَ الْيَوْمَ مَنْ أَخْبَرَ أَنَّهُ يُمِيتُهُ غَدًا؟» قِيلَ: نَعَمْ؛ لِأَنَّهُ سَائِغٌ أَنْ تَقُولَ: «لَوْ كَانَ هَذَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ، أَكَائِنٌ أَوْ يَكُونُ، كَانَ إِنَّمَا يَكُونُ بِأَنْ لَا يَكُونَ أَخْبَرَ عَنْهُ أَوْ أَخْبَرَ عَنِ الْكَائِنِ». وَلَوْ قَالَ قَائِلٌ: «يَقْدِرُ أَنْ يَكْذِبَ؟» قِيلَ لَهُ: أَحَلْتَ. فَإِنْ قَالَ: وَلِمَ؟ قِيلَ: مِنْ قِبَلِ إِنَّ الْكَذِبَ عَجْزٌ وَسَفَهٌ وَخَطَأٌ وَنَقْصٌ وَزَوَالُ حِكْمَة، وَإِنَّمَا تَقُولُ: «يَقْدِرُ أَنْ يَكُونَ مَنْقُوصًا»، وَالنَّقْصُ ضَعْفٌ وَتَغْيِيرٌ، وَلَا يَجُوزُ أَنْ تَقُولَ: «فَلَوْ كَذَبَ كَانَ غَيْرَ كَاذِبٍ»، كَمَا تَقُولُ: «لَوْ فَعَلَ هَذَا الشَّيْءَ الَّذِي أَخْبَرَ أَنَّهُ لَا يَفْعَلُهُ الْيَوْمَ كَانَ إِنَّمَا يَفْعَلُهُ بِأَنْ لَا يَكُونَ أَخْبَرَ عَنْهُ».

فَإِنْ قَالَ: أَرَأَيْتَ لَوْ فَعَلَهُ لَا عَلَى أَنْ لَوْ كَانَ كَيْفَ كَانَ يَكُونُ، وَلَكِنْ مَعَ الْخَبَرِ؟ قِيلَ: هَذَا مُحَالٌ؛ لِأَنَّ هَذَا النَّقْصَ وَالْفَسَادُ. وَلَوْ قَالَ قَائِلٌ: «يَقْدِرُ أَنْ يُعَاقِبَ مَنْ لَمْ يُجْرِمْ؟» قِيلَ: نَعَمْ. فَإِنْ قَالَ: أَرَأَيْتَ لَوْ فَعَلَ مَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ مِنْ ذَلِكَ؟ قِيلَ: كَانَ يَفْعَلُهُ مِنْ وَجْهٍ يَكُونُ ذَلِكَ عِقَابًا يُوقِعُهُ هَذَا الْجُرْمُ؛ لِأَنَّ الْإِنْسِيَّ وَإِنْ لَمْ يُجْرِمْ فَهُوَ قَادِرٌ عَلَى عِقَابِهِ، وَمَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ مِنْ ذَلِكَ إِنَّمَا يُوقِعُهُ بَعْدَ الِاسْتِحْقَاقِ وَعَلَى حَدِّ مَا يَكُونُ فِيهِ إِزَالَةُ الصِّفَةِ. وَلَوْ قَالَ قَائِلٌ: «يَقْدِرُ أَنْ يَظْلِمَ؟» قِيلَ لَهُ: أَحَلْتَ. فَإِنْ قَالَ: وَإِنِ اسْتَحَالَ ذَلِكَ؟ قِيلَ: مِنْ قِبَلِ الظُّلْمِ نَقْصٌ وَسَفَهٌ وَخَطَأٌ وَزَوَالُ حِكْمَةٍ، وَإِنَّمَا تَقُولُ: «يَقْدِرُ أَنْ يَكُونَ غَيْرَ حَكِيمٍ»، وَالْحِكْمَةُ صِفَةُ قِدَمٍ، وَالظُّلْمُ صِفَةُ حَدَثٍ، وَإِنَّمَا تَقُولُ: «يَقْدِرُ أَنْ يَتَغَيَّرَ»، فَهَذَا خَطَأٌ. وَلَوْ قَالَ قَائِلٌ: «يَقْدِرُ أَنْ يَنْسَى أَوْ يَغْفُلَ أَوْ يَجْهَلَ أَوْ يُخْطِئَ»، كَانَ هَذَا مُحَالًا؛ لِأَنَّهُ لَا يَجُوزُ: «لَوْ نَسِيَ أَوْ غَفَلَ أَوْ أَخْطَأَ كَانَ حَكِيمًا»، كَمَا تَقُولُ: «لَوْ كَانَ فَعَلَ مَا سَبَقَ الْعِلْمُ بِأَنَّهُ لَا يَفْعَلُهُ الْيَوْمَ كَانَ لَا يَفْعَلُهُ إِلَّا عَنْ عِلْمٍ سَابِقٍ»، جَازَ أَنْ تَقُولَ: «لَوْ كَانَ هَذَا يَكُونُ كَانَ لَا يَكُونُ إِلَّا عَنْ عِلْمٍ سَابِقٍ»، وَلَا يَجُوزُ أَنْ تَقُولَ: «لَوْ أَخْطَأَ كَانَ يُخْطِئُ بِأَنْ لَا يَكُونَ أَخْطَأَ»، وَلَوْ كَذَبَ كَانَ يَكْذِبُ بِأَنْ لَا يَكُونَ، وَكَذَلِكَ الْأَمْرُ فِيمَا تَقَدَّمَ فِيهِ إِحَالَتُنَا. وَكَذَلِكَ لَوْ قَالَ قَائِلٌ: «يَقْدِرُ أَنْ يَتَّخِذَ صَاحِبَةً وَوَلَدًا؟» قِيلَ لَهُ: أَحَلْتَ؛ لِأَنَّكَ لَا تَقْدِرُ أَنْ تَقُولَ: «لَوْ كَانَ هَذَا يَكُونُ لَمْ يَكُنِ اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَوَلَدًا».

فَإِنْ قَالَ: وَإِنْ أَحَلْتَ هَذَا؟ قِيلَ: مِنْ قِبَلِ أَنَّ اللهَ إِنَّمَا نَفَى ذَلِكَ عَنْ نَفْسِهِ لِغِنَائِهِ وَلِتَعَالِيهِ، وَلِأَنَّ هَذِهِ الْأُمُورَ إِنَّمَا تُتَّخَذُ لِلْكِفَايَةِ وَالْحَاجَةِ وَالتَّكَثُّرِ وَالتَّعَزُّزِ وَالِاسْتِرْوَاحِ وَالْأُنْسِ وَاجْتِلَابِ السُّرُورِ وَالتَّلَذُّذِ، وَكُلُّ ذَلِكَ حَاجَةٌ، وَالْحَاجَةُ ضَعْفٌ، وَإِنَّمَا تَقُولُ: «يَقْدِرُ أَنْ يَحْتَاجَ»، وَالْحَاجَةُ ضَعْفٌ، وَالْغِنَى مِنَ الصِّفَاتِ الَّتِي لَمْ يَزَلْ بِهَا، وَإِنَّمَا تَقُولُ: «يَقْدِرُ أَنْ يَكُونَ مُدَبَّرًا»، فَذَلِكَ مُحَالٌ. وَلَوْ قَالَ قَائِلٌ: «يَقْدِرُ أَنْ يَتَّخِذَ صَاحِبَةً وَوَلَدًا لِغَيْرِ الْحَاجَةِ؟» قِيلَ لَهُ: أَحَلْتَ؛ لِأَنَّهُ لَا مَعْنَى لِهَذَا إِلَّا لِحَاجَةٍ، وَإِنَّمَا تَقُولُ: «يَقْدِرُ أَنْ يَحْتَاجَ لِغَيْرِ حَاجَةٍ»، وَنَفْسُ الِاتِّخَاذِ حَاجَةٌ؛ لِأَنَّهُ لِغِنَائِهِ ارْتَفَعَ عَنِ الِاتِّخَاذِ، وَلَوْ كَانَ الْأَوْلَادُ يُتَّخَذُونَ لِغَيْرِ الْحَاجَةِ أَوْ لِاتِّخَاذِهِمْ مَعْنًى غَيْرَ الْحَاجَةِ، لَمْ يَكُنْ لِتَعَالِيهِ عَنِ اتِّخَاذِهِمْ وَجْهٌ، وَلَكِنَّهُ أَخْبَرَ أَنَّهُ غَنِيٌّ وَ (. . . . . .) لِذَلِكَ. وَكَذَلِكَ لَوْ سَأَلَ سَائِلٌ فَقَالَ: «يَقْدِرُ أَنْ يَتَّخِذَ شَرِيكًا؟» قِيلَ لَهُ:

أَحلْت؛ لأَنَّهُ إنْ سَأَلَ شَرِيكًا قَدِيمًا فَقَدْ أَحَالَ أَنْ يَتَّخِذَهُ، وَالاتِّخَاذُ حَدَثٌ وَمُحَالٌ فِي الْقِدَم. فَإِنْ قَالَ: مُحْدَثٌ، فَقَدْ أَخْرَجَهُ مِنْ أَنْ يَكُونَ قَدِيمًا وَهُوَ مُحْدَثٌ. فَإِنْ قَالَ: يَجْعَلُ لَهُ مَا دَبَّرَ فَيَكُونَ رَبَّهُ، وَالرُّبُوبِيَّةُ قُدْرَةٌ، وَلَيْسَ هُوَ بِقُدْرَة حَدَث كَانَ بِهَا رَبًّا، فَيَكُونَ بِهَا الْعِبَادُ أَرْبَابًا. وَإِنَّمَا يَقُولُ: أَنْ يَكُونَ مَنْقُوصًا، وَالدَّاخِلُ فِي النَّقْص ضَعْفٌ، وَالضَّعْفُ حَدَثٌ، فَقَدْ أَحَالَ. تَدَبَّرُوا جُمْلَةَ مَا ذَكَرْنَا فِي الْمُحَالِ تَعْرِفُوا بِهِ مَا لَمْ نَذْكُرْ، وَإِنَّمَا أَرَدْنَا بِكِتَابِنَا هَذَا جُمَلَ الأُصُولِ فَيُقَاسُ عَلَيْهَا مَا لَمْ نَذْكُرْ.

وَكَذَلِكَ لَوْ سَأَلَ سَائِلٌ لَوْ قَالَ: «يَقْدِرُ أَنْ يَفْعَلَ مَا لَا يُرِيدُ أَنْ يَفْعَلَهُ؟» قِيلَ: إِنْ كَانَ مَا لَا يُرِيدُ أَنْ يَفْعَلَهُ نَظِيرَ مَا قُلْنَا عَلِمَ أَنَّهُ لا يَفْعَلُهُ، وَكَانَ فِي إِدْخَال «لَوْ» لَيْسَ فِيهِ تَغْيِيرُ الصِّفَة؟ قِيلَ: «يَقْدِرُ أَنْ يَفْعَلَهُ»، وَلَوْ فَعَلَهُ كَانَ لَا يَفْعَلُهُ إِلَّا وَهُوَ مُرِيدٌ، وَلَا يَجُوزُ أَنْ يُقَالَ: «يَفْعَلُ كَذَا وَكَذَا بِأَنْ يُرِيدَ»، كَمَا لَا يَجُوزُ أَنْ يَفْعَلَ كَذَا وَكَذَا بِأَنْ يَعْلَمَ، وَلَكِنَّ الْقَوْلَ فِيهِ: «لَوْ فَعَلَهُ كَانَ بِهِ عَالِمًا وَلَهُ مُرِيدًا».

العبارات في الأسماء

إِنْ سَأَلَ سَائِلٌ فَقَالَ: مَا مَنَعَكُمْ أَنْ تَجْعَلُوا أَسْمَاءَ اللهِ مِنْ صِفَاتِ ذَاتِهِ كَمَا جَعَلْتُمُ الْعِلْمَ وَالعِزَّةَ وَالْقُدْرَةَ وَالْقُوَّةَ وَالْعَظَمَةَ؟

قِيلَ: إِنَّ الأَسْمَاءَ كَلَامٌ، وَالْكَلَامَ حُرُوفٌ، وَالْحُرُوفُ يَتَقَدَّمُ بَعْضُهَا بَعْضًا، وَالْأَسْمَاءُ إِنَّمَا هِيَ لِأَهْلِ الْحَاجَةِ لِيُمَيِّزُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ غَيْرِه فِي الرَّغْبَةِ وَالرَّهْبَةِ وَالتَّضَرُّع، فَإِذَا لَمْ تَكُنِ الْحَاجَةُ لَمْ تَكُنْ لِلأَسْمَاءِ مَعْنًى، وَالأَسْمَاءُ كَثِيرَةٌ وَالْمُسَمَّى وَاحِدٌ.

فَإِنْ قَالَ: فَقَدْ قُلْتُمْ إِنَّ الصِّفَات كَثِيرَةٌ وَالْمَوْصُوف وَاحِدٌ؟

قِيلَ: فَقَدْ زَعَمْنَا أَنَّ الصِّفَاتِ الَّتِي هِيَ كَثِيرَةٌ حَدَثٌ؛ لِأَنَّ الصِّفَات كَلَامٌ، فَقَدْ وُفِّقْنَا بَيْنَ الصِّفَاتِ وَالْكَلَام، إِذَا زَعَمْنَا أَنَّ الصِّفَاتِ كَثِيرَةٌ قُلْنَا هِيَ خَلْقٌ، وَكَذَلِكَ الأَسْمَاءُ.

فَإِنْ قَالَ: فَصِفَاتُ الله خَلْقٌ؟

قِيلَ: فَصِفَاتُنَا الَّتِي هِيَ وَصْفٌ خَلْقٌ، وَإِنْ أَرَدْتُمْ حَقِيقَةَ صِفَاتِنَا فَاللهُ لَمْ يَزَلْ عَلَى

حَقِيقَةِ الصِّفَاتِ، وَإِنَّمَا هُوَ مَوْصُوفٌ وَاحِدٌ وَصِفَاتُنَا الْكَثِيرَةُ للهِ. وَكَذَلِكَ الْأَسْمَاءُ كَثِيرَةٌ وَالْمُسَمَّى وَاحِدٌ، وَالصِّفَاتُ إِنَّمَا هِيَ صِفَةٌ لِنَفْسِهِ فَذَلِكَ خَلْقٌ للهِ تَعَالَى، وَهُوَ خَبَرٌ، وَكَذَلِكَ تَسْمِيَتُهُ لِنَفْسِهِ فَذَلِكَ خَبَرٌ، أَلَا تَرَى أَنَّ الْأَسْمَاءَ حُرُوفٌ يَتَقَدَّمُ بَعْضُهَا بَعْضًا؟ وَاللهُ لَمْ يَزَلْ عَلَى حَقِيقَةِ قَوْلِنَا: «عَالِمٌ» وَ«سَمِيعٌ» وَ«عَزِيزٌ» وَ«حَكِيمٌ»، فَلَمْ يَزَلْ عَلَى مَا ذَكَرْنَا لَمْ يَتَقَدَّمْ دَرْكَهُ الْأُمُورَ عِزَّةً وَحِكْمَةً؛ لِأَنَّ مَا تَقَدَّمَ شَيْءٌ مُحْدَثٌ. وَالْأَسْمَاءُ مُحْتَمِلَةٌ لِلزِّيَادَةِ وَالنُّقْصَانِ، وَتَقُولُ: «يَقْدِرُ أَنْ يَتَسَمَّى بِاسْمٍ لَمْ يَكُنْ تَسَمَّى بِهِ»، وَلَا تَقُولُ: «يَقْدِرُ أَنْ يُدْرِكَ أَمْرًا لَمْ يَكُنْ بِهِ مُدْرِكًا»، وَالْكَلَامُ فِي مِثْلِ الْأَسْمَاءِ وَالْحُرُوفِ كَثِيرَةٌ وَعَدَدٌ، وَيَحْتَمِلُ الزِّيَادَةَ وَالنُّقْصَانَ، وَيَحْدُثُ بَعْضُهُ بَعْدَ بَعْضٍ، الْأَلِفُ فِيهِ قَبْلَ غَيْرِهِ، وَالثَّالِثُ يَحْدُثُ فِي غَيْرِ زَمَانِ الثَّانِي، وَالصِّفَاتُ عَلَى مَا ذَكَرْنَا مِنَ الْأَسْمَاءِ وَالْكَلَامِ.

إِنْ سَأَلَ سَائِلٌ فَقَالَ: هَلْ كَانَ يَقْدِرُ اللهُ أَنْ يَخْلُقَ الْخَلْقَ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَهُمْ؟

قِيلَ: نَعَمْ.

فَإِنْ قَالَ: فَإِذَا كَانَ تَأْوِيلُ قَوْلِكَ «قَدِيمٌ» إِنَّهُ كَانَ قَبْلَ الْخَلْقِ، أَرَأَيْتَ قَوْلَكَ: «كَانَ يَقْدِرُ أَنْ يُقَدِّمَ الْخَلْقَ»، أَلَيْسَ كَانَ يَقْدِرُ أَنْ يَجْعَلَ الْخَلْقَ فِي الْقِدَمِ؟

قِيلَ لَهُ: أَمَّا الْأَوَّلُ فَصَحِيحٌ، وَأَمَّا قَوْلُكَ: «كَانَ يَقْدِرُ أَنْ يَجْعَلَ الْخَلْقَ فِي الْقِدَمِ» فَمُحَالٌ؛ وَذَلِكَ أَنَّ الْجَعْلَ حَدَثٌ، وَتَأْوِيلُ قَوْلِكَ «قَدِيمٌ» نَفْيُ الْحَدَثِ، فَهَذَا مُتَنَاقِضٌ. وَلَوْ كَانَ ابْتَدَأَ الْخَلْقَ قَبْلَ ابْتِدَائِهِ لَمْ يَكُنِ الْخَلْقُ بِذَلِكَ قَدِيمًا، أَلَا تَرَى أَنَّ مُعْتَقِدًا لَوِ اعْتَقَدَ أَنَّهُ خَلَقَ الْخَلْقَ مُنْذُ أَلْفِ سَنَةٍ، وَكَانَ أَحَدًا ثُمَّ أَقَلَّ مِنْ هَذَا الْمِقْدَارِ، لَمْ يَكُنِ اعْتَقَدَ أَنَّ ذَلِكَ الْخَلْقَ قَدِيمٌ، فَلِذَلِكَ جَوَّزْنَا الْقُدْرَةَ لَهُ.

فَإِنْ قَالَ: فَهَلْ لِذَلِكَ الَّذِي يَقْدِرُ عَلَيْهِ مِنَ التَّقْدِمَةِ حَدٌّ وَغَايَةٌ؟

قِيلَ: أَمَّا مَا جَرَتْ عَلَيْهِ مَقَادِيرُ السِّنِينَ فَأَخْرَجْتُمْ مِنْ تَأْوِيلِ الْقَدِيمِ فَهُوَ جَائِزٌ، وَمَا خَرَجَ مِنْ ذَلِكَ فَمُحَالٌ.

فَإِنْ قَالَ: وَفِيمَا ذَكَرْنَا مِنْ إِحَالَةِ الْكَلَامِ، أَفَتَقُولُ: «لَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ»؟

قِيلَ: لَا؛ لِأَنَّ الْعَجْزَ لَا يَكُونُ إِلَّا عَنْ مَعْنًى، فَمَا لَمْ يَكُنْ مَعْنًى كَانَ قَوْلُكَ: «لَا يَقْدِرُ»

خَطَأً، وَإِنَّمَا لَمْ يَجُزْ «يَقْدِرُ» لِأَنَّهُ لَا مَعْنَى لِلْكَلَامِ، فَلَوْ كَانَ مَعْنًى لِلْكَلَامِ كَانَ الْقَوْلُ بِأَنَّهُ يَقْدِرُ عَلَيْهِ أَوْلَى بِأَنْ لَا يَقْدِرَ عَلَيْهِ.

إِنْ سَأَلَ سَائِلٌ فَقَالَ: يَعْلَمُ بِكَمْ كَانَ قَبْلَ الْخَلْقِ؟ قُلْنَا لَهُ: أَحَلْتَ؛ وَذَلِكَ إِنَّ «كَمْ» إِنَّمَا هُوَ مِنْ مَقَادِيرِ الْأَزْمِنَةِ، فَهَذَا مُتَنَاقِضٌ؛ لِأَنَّهُ إِذَا سَبَقَ مَعْنَى «كَمْ» كَانَ قَبْلَ مَقَادِيرِ الْأَزْمِنَةِ، فَهُوَ إِذَا لَمْ يَسْبِقِ الزَّمَانَ، فَهَذَا مُتَنَاقِضٌ.

فَإِنْ قَالَ: أَلَيْسَ لَوْ شَاءَ لَمْ يَسْبِقِ الْخَلْقَ؟

قِيلَ لَهُ: أَحَلْتَ؛ لِأَنَّ سَبْقَهُ الْخَلْقَ لَيْسَ بِفِعْلٍ فَيَكُونَ بِالْمَشِيئَةِ كَانَ السَّبْقُ، وَإِنَّمَا يَجُوزُ: «لَوْ شَاءَ كَذَا»، وَكَذَلِكَ بِالْمَشِيئَةِ يَكُونُ.

فَإِنْ قَالَ: يَعْلَمُ بِكَمْ هُوَ أَقْوَى مِنَ الْخَلْقِ؟

قِيلَ لَهُ: أَحَلْتَ؛ وَذَلِكَ أَنَّهُ لَيْسَ يَقْوَى بِقُوَّةٍ ذِي أَجْزَاءٍ فَيَكُونَ التَّفَاضُلُ عَلَى عَدَدِ الْأَجْزَاءِ وَمَقَادِيرِهَا. وَكَذَلِكَ لَوْ سَأَلَ سَائِلٌ فَقَالَ: يَعْلَمُ أَنَّهُ أَعْلَمُ مِنَ الْخَلْقِ؟ قِيلَ: نَعَمْ. فَإِنْ قَالَ: يَعْلَمُ مَقَادِيرَ ذَلِكَ؟ قِيلَ: أَحَلْتَ إِنْ أَرَدْتَ الْعِلْمَ أَوِ الْمَعْلُومَ؛ لِأَنَّا لَمْ نُثْبِتْ لَهُ عِلْمًا بَائِنًا مِنْهُ كَائِنًا لَهُ بِهِ عِلْمُ الْخَلْقِ، وَإِنْ أَرَدْتَ الْمَعْلُومَ فَلَيْسَ لِمَا يَعْلَمُ رَبِّي عِلْمٌ حَدٌّ وَغَايَةٌ، فَهَذَا خَطَأٌ. وَكَذَلِكَ لَوْ سَأَلَ سَائِلٌ فَقَالَ: يَعْلَمُ أَنَّهُ أَغْنَى مِنَ الْخَلْقِ؟ قِيلَ: نَعَمْ. فَإِنْ قَالَ: يَعْلَمُ بِكَمْ؟ قِيلَ: أَحَلْتَ؛ لِأَنَّ غِنَاءَ الْخَلْقِ لَهُ وَأَمْوَالَهُمْ أَمْوَالُهُ، وَلَيْسَ لِغِنَائِهِ حَدٌّ يُتَكَلَّمُ عَلَيْهِ، إِنَّمَا هُوَ إِنَّ لَهُ غِنًى كَقَوْلِنَا: «لَهُ عِلْمٌ» يَعْنِي أَنَّهُ عَالِمٌ، وَلَهُ الْغِنَى عَلَى أَنَّهُ غَنِيٌّ، إِذْ مَنْ لَا غِنَى لَهُ فَهُوَ فَقِيرٌ، وَأَمْوَالُ الْخَلْقِ أَمْوَالُهُ، فَخَطَأٌ أَنْ يُقَالَ: «يَعْلَمُ بِكَمْ هُوَ أَغْنَى مِنْهُمْ». وَكَذَلِكَ الْجَوَابُ فِي صِفَاتِ الذَّاتِ أَجْمَعَ.

إِنْ سَأَلَ سَائِلٌ فَقَالَ: أَرَأَيْتَ لَوْ خَلَقَ أَكْثَرَ مِمَّا خَلَقَ، أَلَيْسَ كَانَ يَكُونُ أَعْظَمَ لِسُلْطَانِهِ؟

قِيلَ: هَذَا الْكَلَامُ يَحْتَمِلُ مَعَانِيَ، يَقُولُ النَّاسُ: «انْظُرُوا إِلَى سُلْطَانِ اللهِ وَقُدْرَتِهِ وَمُلْكِهِ»، وَهُمْ يَعْنُونَ أَنَّ هَذَا مِنْ سُلْطَانِ اللهِ وَقُدْرَتِهِ وَمُلْكِهِ، كَانَ مَا يَرَوْنَ. وَيُسَمُّونَ السُّلْطَانَ الْحُجَّةَ وَالسُّلْطَانَ الْمُلْكَ، فَلَمْ يَزَلِ اللهُ مَالِكًا وَلَمْ يَسْتَحْدِثِ الْمُلْكَ. وَإِنْ أَرَادَ: «لَوْ كَانَ دَبَّرَ أَكْثَرَ مِمَّا دَبَّرَ كَانَ أَعْظَمَ سُلْطَانُهُ»، يُرِيدُونَ كَانَ تَكُونُ الْأَرْضُ أَطْوَلَ وَأَعْرَضَ وَالْخَلْقُ فِيهَا أَكْثَرَ، فَنَعَمْ.

وَإِنْ أَرَادَ السُّلْطَانَ الْقُدْرَةَ فَخَطَأٌ؛ لأَنَّ السُّلْطَانَ قَدْ كَانَ لَهُ قَبْلَ الْخَلْقِ، فَلَمْ يَزْدَدْ بِالْخَلْقِ مُلْكًا وَلَا قُدْرَةً، بَلِ الْخَلْقُ بِالْمُلْكِ وَالْقُدْرَةِ حَدَثٌ. وَإِنْ أَرَادَ: «لَوْ كَانَ أَرَاهُمْ مِنْ لُطْفِهِ وَعَجَائِبِ تَدْبِيرِهِ أَكْثَرَ مِمَّا أَرَاهُمْ كَانَ أَعْظَمَ لِسُلْطَانِ الْحُجَّةِ»، فَنَعَمْ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَكُونَ فِي ذَلِكَ تَقْصِيرٌ.

إِنْ سَأَلَ سَائِلٌ فَقَالَ: لَوْ رَحِمَ مَنْ يُعَذِّبُ وَصَفَحَ عَنْ كُلِّ ذَنْبٍ مِنْ شِرْكٍ وَغَيْرِهِ، أَلَيْسَ كَانَ تَكُونُ رَحْمَتُهُ أَعْظَمَ؟

قِيلَ: إِنْ عَذَّبَ فَكَانَ جَعْلُ الرَّحْمَةِ بَعْدَ الْعَذَابِ أَكْثَرَ رَحْمَتُهُ. فَإِنْ قَالَ: أَلَيْسَ كَانَ تَكُونُ صِفَتُهُ أَرْجَحَ وَأَعْظَمَ؟ قِيلَ: خَطَأٌ، وَلَكِنْ كَانَ يَكُونُ عَفْوُهُ أَكْثَرَ وَأَفْضَالُهُ. فَخَطَأٌ أَنْ تَكُونَ صِفَتُهُ أَرْجَحَ؛ لأَنَّ اللهَ لا يَنَالُ بِالْفِعْلِ رُجْحَانًا، وَلَكِنْ بِكَرَمِهِ وَجُودِهِ يَحْدُثُ الرَّحْمَةَ وَالصَّفْحَ، فَلَيْسَ فِي صِفَةِ ذَاتِهِ تَقْصِيرٌ عَنْ كَرَمٍ وَجُودٍ، وَلَكِنْ كَانَ يَكُونُ الصَّفْحُ مِنْهُ مِنَّةً عَلَى عِبَادِهِ لَيْسَتْ عَلَى أَهْلِ الْمَعَاصِي، فَكَانَتِ الْمِنَّةُ أَكْثَرَ. فَلَيْسَ لِمَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ مِنَ الْمِنَنِ غَايَةٌ، فَلَمَّا لَمْ يَكُنْ لِلْمِنَنِ غَايَةٌ كَانَ خَطَأً أَنْ يَمُنَّ بِمِنَّةٍ أَلَا وَهُوَ يَقْدِرُ عَلَى أَرْجَحَ مِنْهَا، وَلَيْسَتْ مِنَّةٌ هِيَ أَرْجَحَ مِنْ مِنَّةٍ مِمَّا يَلْزَمُهُ التَّقْصِيرُ، وَلَا يَنَالُ بِالْفِعْلِ رُجْحَانًا؛ لأَنَّ ذَلِكَ يَصِيرُ إِلَى أَنَّهُ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنَ التَّقْصِيرِ وَلَا بَالِغٍ مِنَ الرُّجْحَانِ، وَقَدْ كَانَ قَبْلَ الْفِعْلِ غَيْرَ مُدْرِكٍ لِهَذَا الرُّجْحَانِ، فَهَذَا خَطَأٌ، وَلَكِنَّ الأَفْضَالَ مِنْهُ مِنَّةٌ يَجِبُ بِهَا الشُّكْرُ، وَكُلَّمَا كَثُرَتِ الأَيَادِي عَظُمَ الشُّكْرُ، وَصِفَتُهُ فِي ذَاتِهِ لَا يَزِيدُهَا كَثْرَةُ الأَفْضَالِ عَظَمَةً، وَاللهُ لَا يَنَالُ بِالتَّدْبِيرِ رُجْحَانًا.

وَكَذَلِكَ إِنْ سَأَلَ سَائِلٌ: أَرَأَيْتَ لَوْ جَعَلَ مَكَانَ الْعَافِيَةِ بَلَاءً وَمَكَانَ الْبَلَاءِ عَافِيَةً؟ قِيلَ: قَدْ كَانَ يَفْعَلُ ذَلِكَ، وَرُجْحَانُهُ (. . . . .) إِلَى الْعِبَادِ، وَلَيْسَ ذَلِكَ بِأَرْجَحَ لَهُ، وَلَكِنْ كَانَ أَفْضَالُهُ أَكْثَرَ. قَالَ: فَهَلْ رَأَيْتُمْ مُتَفَضِّلًا يَتَفَضَّلُ إِلَّا وَكُلَّمَا كَانَ أَفْضَالُهُ أَكْثَرَ كَانَ أَرْجَحَ؟ قِيلَ: لَا. فَإِنْ قَالَ: فَهَاتِ الْفَضْلَ؟ قِيلَ: إِنَّ الْخَلْقَ إِنَّمَا تَفَاضُلُهُمْ بِأَعْمَالِهِمْ، وَبِالأَفْعَالِ يَتَشَرَّفُونَ وَيَنْحَطُّونَ، وَلَيْسَ أَحَدٌ مِنْهُمْ كَانَ قَبْلَ النَّوَالِ فَاضِلًا وَلَا قَبْلَ التَّدْبِيرِ حَكِيمًا، وَاللهُ تَعَالَى قَبْلَ التَّدْبِيرِ كَانَ كَرِيمًا عَزِيزًا بَائِنًا بِالْقُوَّةِ، وَلَمْ يَسْتَحِقُّوا بِهَذَيْنِ الْفِعْلَيْنِ فَضْلًا كَانَ مُقَصِّرًا عَنْهُ؛ لأَنَّهُ لَوْ كَانَ بِذَلِكَ أَدْرَكَ هَذَا الْفَضْلَ كَانَ بِهِ إِلَى التَّدْبِيرِ حَاجَةٌ لِيَنَالَ بِالتَّدْبِيرِ مَا لَمْ يَكُنْ نَالَهُ قَبْلَ التَّدْبِيرِ. فَلَمَّا ذَكَرْنَا أَبَيْنَا الْقَوْلَ بِأَنَّهُ يَنَالُ بِالْفِعْلِ رُجْحَانًا؛ لأَنَّ ذَلِكَ يُوجِبُ الْحَاجَةَ؛ لأَنَّهُ إِذَا نَالَ بِالْفِعْلِ فَضْلًا كَانَ فَقِيرًا إِلَى هَذَا الْفَضْلِ، وَلَا بُدَّ مِنْ أَنْ يَكُونَ هَذَا الْفَقْرُ قَدِيمًا

أَوْ مُسْتَحْدَثًا، فَإِنْ كَانَ قَدِيمًا فَالْفَقْرُ مِنْ صِفَاتِهِ الَّتِي لَمْ يَزَلْ بِهَا، وَإِنْ كَانَ مُسْتَحْدَثًا فَذَلِكَ تَغْيِيرٌ، فَفَسَدَ مَا ذَكَرْنَا بِهَذِهِ الْعِلَلِ.

إِنْ سَأَلَ سَائِلٌ فَقَالَ: يَقْدِرُ اللهُ أَنْ لَا يُثِيبَ مَنْ أَطَاعَهُ وَلَا يُعَاقِبَ مَنْ كَفَرَ بِهِ؟

قِيلَ لَهُ: أَحَلْتَ. فَإِنْ قَالَ: وَإِن اسْتَحَالَ ذَلِكَ؟ قِيلَ: مِنْ قِبَلِ إِنَّ الثَّوَابَ شُكْرٌ، وَالشُّكْرُ عَنْ كَرَمٍ، وَاللهُ تَعَالَى الْكَرَمُ مِنْ صِفَاتِ ذَاتِهِ. فَإِنْ قِيلَ: يَقْدِرُ أَنْ لَا يَشْكُرَ، فَفِي ذَلِكَ: «يَقْدِرُ أَنْ لَا يَكُونَ كَرِيمًا وَلَا جَوَادًا»، فَمَاذَا مُحَالٌ. وَمِنْ ذَلِكَ: لَوْ أَنَّ قَائِلًا قَالَ: «يَقْدِرُ أَنْ لَا يُثِيبَ مَنْ أَطَاعَهُ»، كَانَ قَدْ نَفَى عَنْهُ رَغْبَةَ الطَّاعَةِ، وَنَفَى عَنِ الْمُطِيعِ الْحَظَّ لَهُ فِي الطَّاعَةِ، فَإِذَا كَانَتِ الطَّاعَةُ لَا ثَوَابَ عَلَيْهَا لَمْ تَكُنِ الطَّاعَةُ تَنْفَعُ عِنْدَهُ، فَإِذَا لَمْ تَنْفَعْ عِنْدَهُ لَمْ يَكُنْ لِلرَّغْبَةِ فِيهَا وَجْهٌ، بِذَلِكَ أَحَلْتَ فِي أَنْ لَا يَقْدِرَ أَنْ لَا يُثِيبَ عَلَى الطَّاعَةِ. وَلَوْ قَالَ قَائِلٌ: «يَقْدِرُ أَنْ لَا يُعَاقِبَ عَلَى الْكُفْرِ؟» قِيلَ لَهُ: أَحَلْتَ؛ لِأَنَّكَ تُرِيدُ الصَّفْحَ، فَإِذَا صَفَحَ عَنِ الْكُفْرِ لَمْ يَكُنِ الْكُفْرُ عِنْدَهُ ضَارًّا؛ لِأَنَّ الضَّرَرَ عِقَابٌ، وَتَرْكُ الْعِقَابِ عَنِ الْكُفْرِ إِهْمَالٌ، فَإِذَا لَمْ يَكُنْ يُثِيبُ لِمَكَانِهِ عُقْبَى عَنْ غَيْرِهِ مِنَ الذُّنُوبِ، فَذَلِكَ إِهْمَالٌ. فَإِذَا لَمْ يُعَاقِبْ عَلَى الْكُفْرِ وَلَمْ يَشِنِ الْكُفْرَ وَلَا لِلْكُفَّارِ عِنْدَهُ سَوَاءُ الْحَالِ، بَلْ قَدْ نَالَ تَفْضِيلًا فِي الْعَاجِلِ وَفِي أَنْ يَرْفَعَ عَنْهُ عُقُوبَةَ الْكُفْرِ فِي الْآجِلِ، فَقَدْ نَالَ خَيْرًا وَلَمْ يَنَلْ شَرًّا، وَلَمْ يَنْفَصِلْ كَافِرٌ مِنْ مُؤْمِنٍ إِذَا لَمْ يُثِبْ عَلَى الْإِيمَانِ وَلَمْ يُعَاقِبْ عَلَى الْكُفْرِ. فَإِنْ قِيلَ: يُعَاقِبُ عَلَى الْكُفْرِ وَلَا يُثِيبُ عَلَى الْإِيمَانِ، فَذَلِكَ مُحَالٌ؛ لِأَنَّهُ رَفَعَ الرَّغْبَةَ وَالشُّكْرَ، ارْتَفَعَ ذَلِكَ، ارْتَفَعَ الْكَرَمُ.

فَإِنْ قَالَ: أَيُثِيبُ عَلَى الْإِيمَانِ وَلَا يُعَاقِبُ عَلَى الْكُفْرِ؟ فَذَلِكَ خَطَأٌ؛ لِأَنَّهُ رَفَعَ الْهَيْبَةَ وَالْوَجَلَ وَالِاسْتِعَاذَةَ وَالرَّغْبَةَ وَالرَّهْبَةَ؛ لِأَنَّ الرَّهْبَةَ حَذَرٌ، وَهِيَ أَدْعَى إِلَى الْعِبَادَةِ مِنْ قَدْرِ الرَّغْبَةِ، وَقَدْرُ الرَّهْبَةِ فِي الْقُلُوبِ أَعْظَمُ مِنْ قَدْرِ الرَّغْبَةِ، وَلَوْ رُفِعَ الْعِقَابُ؟ قِيلَ: مَا أَخَافُ اللهَ وَلَا أَرْهَبُهُ وَلَا أَهَابُهُ وَلَا أُبَالِي إِنْ عَصَيْتُهُ، وَقَدْ أَمَّنَنِي، فَهَذَا خَطَأٌ، وَالْقَوْلُ بِأَنَّهُ يَقْدِرُ أَنْ لَا يُعَاقِبَ عَلَى الْكُفْرِ وَلَا يُثِيبَ عَلَى الْإِيمَانِ مُحَالٌ.

فَإِنْ قَالَ: أَفَيُحَسِّنُ بِالثَّوَابِ؟ قِيلَ: نَعَمْ، كَمَا تَقُولُ: «مَا أَحْسَنَ الرَّاعِيَ إِحْسَانَكَ وَالشَّاكِرَ مَا كَانَ مِنْكَ وَالْمُثِيبَ لَكَ عَلَى طَاعَتِكَ لَهُ؟» قِيلَ: نَعَمْ. فَإِنْ قَالَ: فَهَلْ يَتَفَضَّلُ بِالثَّوَابِ؟ قِيلَ: نَعَمْ. فَإِنْ قَالَ: وَكَيْفَ يَكُونُ ذَلِكَ وَذَلِكَ جَزَاءُ الْأَعْمَالِ؟ قَالَ: مِنْ قِبَلِ أَنَّ

كُلَّ ثَوَابٍ عَلَى طَاعَةٍ فَهَنَاكَ مَعْصِيَةٌ غَفَرَهَا ، فَتَفَضَّلَ بِالثَّوَابِ إِذْ مَعَ ذَلِكَ ذَنْبٌ صَفَحَ عَنْهُ، وَلَمْ يَحْضُرْ قَبُولُ التَّوْبَةِ وَلَا الصَّفْحُ عَلَى الآثَامِ، فَقَدْ تَفَضَّلَ فِي ذَلِكَ بِأَنَّهُ رَزَقَ الإِيمَانَ، فَيَرْزُقُهُ الإِيمَانَ، يُقَالُ: الإِيمَانُ، فَتَفَضَّلَ بِالثَّوَابِ إِذْ تَفَضَّلَ بِإِعْطَاءِ الإِيمَانِ، فَتَفَضَّلَ بِالثَّوَابِ إِذِ الإِيمَانُ بِمَعْنَى مَا ذَكَرْنَا خَيْرُ الأَشْيَاءِ بِاللهِ كَانَ، وَلَوْلَا اللهُ مَا كَانَ مِنَ المُؤْمِنِينَ الإِيمَانُ، فَهَذَا وَجْهُ تَفَضُّلِهِ، وَلَيْسَ مُثَابٌ عَلَى الإِيمَانِ إِلَّا وَقَدْ جَامَعَ ثَوَابُ الإِيمَانِ تَفَاضُلًا كَثِيرًا. وَفِيمَا ذَكَرْنَا عَلَى أَرَدْنَا ذِكَرَ الجُمَلِ دُونَ التَّفْسِيرِ فَتَتِمُّ بِالنِّعَمِ. قَالَ صَاحِبُ النُّورِ: فَإِنْ قِيلَ: كَيْفَ يَدْخُلُ المُكَلَّفُونَ الجَنَّةَ بِالتَّفَضُّلِ وَهُمْ قَدِ اسْتَحَقُّوهُ بِعَمَلِهِمْ؟ وَلَوْ كَانَ كَذَلِكَ لَكَانَ كُلُّ مَنْ دَفَعَ إِلَى أَجِيرٍ أَجْرَتَهُ فَقَدْ تَفَضَّلَ عَلَيْهِ؟ قِيلَ لَهُ: أَنَّ الأَجِيرَ قَدْ نَفَعَ المُسْتَأْجِرَ بِعَمَلِهِ كَمَا نَفَعَهُ المُسْتَأْجِرُ بِأَجْرَتِهِ، وَالمُكَلَّفُونَ لَمْ يَنْفَعُوا اللهَ شَيْئًا ، إِنَّمَا كَلَّفَهُمُ اللهُ لِيَنْفَعَهُمْ، فَهَذَا فَرْقٌ بَيْنَ ذَلِكَ..

باب تصاريف العلل

إِنْ سَأَلَ سَائِلٌ فَقَالَ: فَهَلَّا وَفَّقَ اللهُ الخَلْقَ جَمِيعًا لِلإِيمَانِ الَّذِي كَلَّفَهُمْ وَهَدَاهُمْ لَوْ شَاءَ إِذْ لَهُمْ فِي ذَلِكَ حَظٌّ وَنَفْعٌ وَلَا ضَرَرَ عَلَيْهِ فِي هِدَايَتِهِمْ وَهُوَ حَكِيمٌ؟

قِيلَ: لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى عَرَّفَ بِذَلِكَ العَدْلَ مِنَ الطَّوْلِ وَأَوْجَبَ بِهَذِهِ الصَّنْعَةِ الرَّغْبَةَ وَالرَّهْبَةَ وَأَرَادَ أَنْ يَشْكُرَهُ المُحْسِنُ إِلَيْهِ وَلَوْ هَدَى الخَلْقَ أَجْمَعِينَ وَأَصَحَّهُمْ وَأَغْنَاهُمْ لَمَّا اسْتَعَاذُوا مِنَ الإِضْلَالِ وَلَا عَرَفُوا أَنَّ الإِضْلَالَ عَدْلٌ إِذْ لَمْ يَرَوْهُ فَيَخْطُرَ بِبَالِهِمْ فَيَرْهَبُوا مِنْهُ وَلَمَّا كَانَتْ تُوجِبُ الهِدَايَةُ مِنَ الشُّكْرِ مَا تُوجِبُ اليَوْمَ إِذْ لَمْ يَرَوْا تَفَضُّلًا مِنَ اللهِ لَهُمْ عَلَى غَيْرِهِمْ وَلَمَّا كَانَتْ تَثْبُتُ مَعَ ذَلِكَ رِسَالَةُ الرُّسُلِ إِذْ كُلُّ الخَلْقِ فِي الطَّهَارَةِ وَالبِرِّ وَالصِّدْقِ عَلَى أَمْرٍ وَاحِدٍ وَلَا يَكُونُ لِتَأْكِيدِ حُجَّةِ الرُّسُلِ وَجْهٌ لِأَنَّهُ لَيْسَ بِمُبْطِلٍ فَيُبِينُ مِنْهُ بِالحَقِّ وَالحُجَّةُ قَائِمَةٌ إِذْ لَيْسَ بِكَاذِبٍ فَيَكُونُ لِقَوْلِهِ رُجْحَانُ الصِّدْقِ وَلَا يَكُونُ الرَّسُولُ إِلَّا وَأَعْلَامُهُ ضَارَّةٌ وَحُجَّةٌ بَائِنَةٌ يُبِينُ بِهَا مِنِ ادِّعَاءِ الرِّسَالَةِ وَالرَّسُولُ مِنَ المُرْسَلِ إِلَيْهِ وَلَتَصِحَّ الرَّغْبَةُ وَتَعْظُمَ الرَّهْبَةُ وَيَسْتَحِقَّ حَقِيقَةَ الشُّكْرِ وَيَكُونَ لِخَلْقِ العَذَابِ مَعْنًى وَذَلِكَ إِنَّهُ لَوْ سَاوَى بَيْنَهُمْ فِي الهِدَايَةِ لَا يَهْتَدُوا. وَلَوِ اهْتَدَوْا بَطَلَ العَذَابُ وَقَدْ سَبَقَ العِلْمُ بِكَوْنِ أَفْعَالِهِمْ فِي التَّدْبِيرِ الحَادِثِ عَلَى العِلْمِ السَّابِقِ فَلِمَا ذَكَرْنَا فَضَّلَ العِبَادَ وَفَصَلَ بَيْنَهُمْ وَهَدَى وَأَضَلَّ وَأَغْنَى وَأَفْقَرَ وَإِنْ كَانَتْ هِدَايَةٌ لِجَمِيعِ الخَلْقِ

غَيْرِ ضَارَّةٍ لَهُ وَلَا إِضْلَالُهُمْ نَافِعًا لَهُ وَلَمْ يُخْرِجْهُ ذَلِكَ مِنْ حَدِّ الْحِكْمَةِ لِأَنَّ إِخْرَاجَ الْمُدَبِّرِ مِنَ الْحِكْمَةِ أَنْ يَفْعَلَ فِعْلًا يَلْزَمُهُ بِذَلِكَ سِمَةٌ شَيْنَةٌ وَصِفَةٌ مَذْمُومَةٌ وَلَيْسَ فِي أَنْ يَخُصَّ اللَّهُ أَحَدًا بِفَضْلِهِ جَهْلٌ وَلَا جَوْرٌ وَلَوْ كَانَ جَهْلًا وَجَوْرًا لَمَا كَانَتِ الْهِدَايَةُ فَضْلًا وَلَا طَوْلًا وَفِي صُحُفِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: «إِنِّي لَمْ أُلْجِئِ الْفَقِيرَ إِلَى الْأَغْنِيَاءِ، إِنَّ خَزَائِنِي ضَاقَتْ وَرَحْمَتِي لَمْ تَسَعْهُمْ وَلَكِنْ فَرَضْتُ لِلْفُقَرَاءِ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ الْأَغْنِيَاءِ وَمَا يَسَعُهُمْ مِنْ صَدَقَاتِ أَمْوَالِهِمْ فَأَرَدْتُ أَنْ أَبْلُوَ الْأَغْنِيَاءَ كَيْفَ مُسَارَعَتُهُمْ فِي دَفْعِ مَا فَرَضْتُ لِلْفُقَرَاءِ عَلَيْهِمْ فِي أَمْوَالِهِمْ فَإِنْ فَعَلُوا أَخْلَفْتُ عَلَيْهِمْ فِي الدُّنْيَا الْوَاحِدَ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا وَادَّخَرْتُ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ حُسْنَ الثَّوَابِ وَإِنْ يَذْكُرُ أَهْلُ النِّعْمَةِ أَهْلَ الْمُوسِرِ وَأَهْلُ السَّعَةِ أَهْلَ الضِّيقِ فَإِنْ فَعَلُوا ذَلِكَ دَامَتْ نِعْمَتِي لَهُمْ وَزِدْتُ إِحْسَانًا لَهُمْ وَعَافَيْتُهُمْ مِنْ جَمِيعِ الْبَلَايَا وَالْآفَاتِ وَأَوْجَبْتُ لَهُمْ رِضْوَانِي فِي الْجَنَّةِ وَنِعْمَ ثَوَابُ الصَّابِرِينَ.»

إِنْ سَأَلَ سَائِلٌ فَقَالَ: لِمَ خَلَقَ اللَّهُ الْحَيَّاتِ وَالْعَقَارِبَ وَالسِّبَاعَ وَالْهَوَامَّ وَالظَّلَامَ وَمَا لَا نَفْعَ فِيهِ لِأَحَدٍ؟

قِيلَ: لَهُمْ لَيْسَ الْأَمْرُ حَيْثُ ذَهَبْتُمْ إِلَيْهِ إِنَّ لِلْعِبَادِ فِي هَذِهِ الْأُمُورِ نَفْعًا (........)[1] دَلَالَةً عَلَى أَصْنَافِ الْعِقَابِ وَأَلْوَانِ الْعَذَابِ وَعِبْرَةً تَدُلُّ عَلَى وَحْدَانِيَّتِهِ وَآثَارِ قُدْرَتِهِ يَرْغَبُوا اللَّهَ فِي صَرْفِ أَذَاهَا عَنْهُمْ عَاجِلًا وَآجِلًا وَيَرْهَبُوا مِنْ تَسْلِيطِ إِيَّاهَا عَلَيْهِمْ وَيَدُلُّ بِذَلِكَ عَلَى عَجْزِ الْخَلْقِ عَنْ صَرْفِ الْمَكْرُوهِ عَنْ أَنْفُسِهِمْ وَإِنَّ الَّذِي أَعْجَزَ بِهِمْ عَنْ ذَلِكَ قَادِرٌ وَاحِدٌ حَكِيمٌ وَلِهَذَا وَنَحْوِهِ دَبَّرَ هَذَا الْخَلْقَ لِيَهْتَدِيَ بِالْإِقْرَارِ بِهَا أَقْوَامٌ وَيَضِلَّ بِجُحُودِهَا آخَرُونَ فَتَكُونَ عَلَى قَوْمٍ عِبْرَةً وَبَلِيَّةً عَلَى آخَرِينَ.

إِنْ سَأَلَ سَائِلٌ فَقَالَ: لِمَ وَكَّلَ اللَّهُ بِأَعْمَالِ الْعِبَادِ حَفَظَةً وَأَثْبَتَ الْأُمُورَ فِي كِتَابِهِ وَهُوَ لَا يَنْسَى؟

قِيلَ: إِنَّ الْخَلْقَ خَلْقُهُ تَعَبَّدَهُمْ بِمَا شَاءَ مِنْ أَنْوَاعِ فَرْضِهِ فَكَمَا اسْتَعْبَدَنَا بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ فَكَذَلِكَ اسْتَعْبَدَ الْمَلَائِكَةَ بِإِحْصَاءِ أَعْمَالِ الْعِبَادِ لَا لِيَحْفَظُوا عَلَيْهِ شَيْئًا وَلَكِنْ لِئَلَّا يُهْمِلَهُمْ مِنْ عِبَادَتِهِ وَلِيَمْتَحِنَ الْعِبَادَ بِتَصْدِيقِ أَنَّ ذَلِكَ كَذَلِكَ فَيُثِيبَ الْمُسْلِمَ بِتَصْدِيقِ أَمْرِهِ وَيُعَذِّبَ الْجَاحِدَ

1- نقص في العبارة

لذلك وَيَعْلمون أَنَّ للَّه عَلَى مَلائكَته طَاعَةً كَمَا كَانَتْ عَلَى بَني آدَمَ وَأَنَّهُمْ بأَمْره يَعْملُونَ وَأَنَّ أَقْدَارَ الخَلْق لا يُجَاوزُونَ حَدَّ الخُضُوع للَّه وَالاسْتكَانَة وَالرَّهْبَة منْهُ وَالرَّغْبَة إلَيْه وَلتَشْتَدَّ رَهْبَةُ الخَلْق منَ الإقْدَام عَلى مَعَاصي اللَّه إذْ مَعَهُمْ كرَامٌ كَاتبُونَ يُحْصُونَ مَا يَفْعَلُونَ وَيُثْبتُونَ مَا يَأْتُونَ فَزَجْرٌ عَلَى المَعَاصي بحُضُورهمْ للْخَلْق لأَنَّ المفكرَ إذَا فكرَ أَنَّ مَلائكَةَ اللَّه تحصي ذَلكَ وَتُثْبتُهُ وَتكرمُهُ ارْتَدعَ بذَلكَ عَنْ مَعَاصي اللَّه فَجعَلَ اللَّهُ ذَلكَ سَبَبًا لزَجْر الْعبَاد عَنْ مَعَاصيه.

إنْ سَأَلَ سَائلٌ فَقَالَ: لمَ أَمَرَ اللَّهُ الْخَلْقَ لطَاعَته وَنَهَاهُمْ عَنْ مَعْصيَته وَلمَ عَذَّبَ الْكَافرينَ وَلَيْسَ لَهُ في عَذَابهمْ نَفْعٌ وَأَثَابَ عَلى الإيمَان وَشكْره وَهُوَ لا تَنْفَعُهُ الطَّاعَةُ وَهَلَّا عَفَا عَن الكُفْر وَالعَفْوُ صفَةٌ حَسَنَةٌ؟

قيلَ: لمَ أَنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لَمَّا أَنْ خَلَقَنَا خلْقَةً مُنْفَصلَةً منَ الْبَهَائم مُدَلَّلَةً بالتَّأْديب عَارفَةً بالْمَنَافع وَالْمَضَارّ مُسْتَشْهدَةً بحُجَج كَانَ إنَّمَا أَبَانَنَا منَ الْبَهَائم في الفطَن وَالعَقْل المُرَكَّب وَأَبَانَنَا منْهَا بالأَمْر وَالنَّهْي وَكَانَتْ خلْقَتُنَا مُحْتَملَةً لمَا لا تحْتَملُهُ خلْقَةُ البَهَائم منْ مَعْرفَة الصَّانع فَلَمَّا صَنَعَنَا هَذه الصَّنْعَةَ وَرَكَّبَنَا هَذَا التَّرْكيبَ أَمَرَنَا لغَيْر حَاجَة لأَنَّ المُحْتَاجَ إلَيْهَا مَضْرُورٌ وَنَهَانَا غَيْرَ رَاهب وَلكنَّهُ أَوْزَعَنَا نعْمَةً فَسَأَلَنَا شُكْرَهَا وَكَانَ في تَرْكنَا بغَيْر أَمْر وَلا نَهْي مَعَ هَذه الخلْقَة إهْمَالٌ فَلَمَّا أَنْ كُنَّا نَحْتَملُ مَعْرفَتَهُ وَلا يُوجبُ فَرْضُهُ عَلَيْنَا كَانَ غَيْرَ مَحْظُورٍ عَنَّا الجَهْلُ لَهُ وَمَا أَنْ كَانَ منَ الحكْمَة أَنْ لا نُطْلَقَ الجَهْلَ به وَالتَّكْذيبَ لمُمْكن الْعلْم الصَّحيح الْفطْنَة أَمَرَنَا لئَلَّا نكُونَ سُدًى وَنُعَظِّمَهُ إذْ وَشَوَاهدُ رُبُوبيَّته ظَاهرَةٌ وَحُجَّةٌ مُنيرَةٌ فَنَدَبَ إلَى ذَلكَ بحكْمَته ثُمَّ شَكَرَ الطَّاعَةَ الَّتي لا تَنْفَعُهُ لفَضْل كَرَمه وَجُوده إذ الخَلْقُ إنَّمَا يَشْكُرُونَ لمَنْ يَنْفَعُهُمْ وَلَمَّا أَنَّ المَعْصيَةَ لا تَضُرُّهُ وَكَانَت اسْتخْفَافًا بحَقّه أَوْجَبَ عقَابَهُ لأَنْ يُعَظّمَ جَلالُهُ وَيُرْهَبَ منْ مَعَاصيه مثْلَ مَا يُرْغَبُ فيه منْ طَاعَته فَيَكُونَ أَجْزَلَ الحَظّ للْمُطيع في صَرْف الْعقَاب وَدَرْك الثَّوَاب وَأَبْلَى عَلَى مَعْصيَته بفَوْت الثَّوَاب وَحُلُول الْعقَاب وَلَوْ لَمْ تَضُرَّ الْمَعْصيَةُ عنْدَهُ لَمَا أَكَّدَ النَّدْبَ إلَى تَعْظيمه وَلإدْرَاك الزَّجْر عَنْ مَعْصيَته إذْ لا ضَرَرَ في الكُفْر وَلا مَسَاءَةَ وَلَوْ كَانَ الكُفْرُ به غَيْرَ ضَارٍّ وَالإيمَانُ به غَيْرَ نَافع لَمَا انْفَصَلَتْ طَاعَتُهُ منْ مَعْصيَته وَلَوْ أَبَاحَ الكذبَ عَلَيْه بغَيْر تَقيَّة لَجَازَ أَنْ يُنْدَبَ إلَيْه وَلَمَّا أَنْ كَانَ في النَّدْب إلَيْه صفَةٌ مَذْمُومَةٌ كَانَ في إبَاحَته

بِغَيْرِ سَبَبِ تِلْكَ الصِّفَةُ فَفَسَدَ إِبَاحَتُهُ مِنْ حَيْثُ فَسَدَ الْأَمْرُ بِهِ وَفَسَدَ أَلَّا يَأْمُرَ بِتَعْظِيمِهِ إِذَ الْأَدِلَّةُ الْمَوْضُوعَةُ لِذَوِي الْفِطْنَةِ الصَّحِيحَةِ قَائِمَةٌ وَلَا يَجُوزُ أَنْ يُبَيِّنَ النَّاسَ مِنَ الْبَهَائِمِ فِي الْفَهْمِ وَالذَّكَاءِ وَالْعَقْلِ وَالتَّأْدِيبِ ثُمَّ يُخَلِّيَهَا لِمَا أَرَادَتْ مِنَ التَّكْذِيبِ لَهُ وَالْجَحْدِ وَالشَّتْمِ وَالِاسْتِكْبَارِ عَلَى طَاعَتِهِ فَإِنَّ الْإِهْمَالَ وَالتَّرْكَ سُدًى إِلَّا هَذَا وَلَمَّا أَنْ كَانَ كَرَمُهُ يَفُوقُ كُلَّ كَرَمٍ وَيُجَاوِزُ هُدَاهُ كُلَّ فَضْلٍ كَانَ ثَوَابُهُ عَلَى حَسَبِ كَرَمِهِ وَحَسَبُ كَرَمِهِ أَنَّهُ لَا تَقْصِيرَ فِيهِ وَكَذَلِكَ ثَوَابُهُ لَا أَمَدَ لَهُ وَلَا غَايَةَ وَلَا نِهَايَةَ وَلَمَّا أَنْ كَانَ الثَّوَابُ يَفُوقُ كُلَّ أَمَدٍ وَكَانَ الْكُفْرُ بِهِ غَايَةَ كُلِّ مَعْصِيَةٍ كَانَ عِقَابُهُ عَلَى مِثْلِ ثَوَابِهِ دَائِمًا لِأَنَّ الْأَمْرَ الَّذِي زَجَرَ بِهِ عَنِ الْمَعْصِيَةِ عُطِفَ بِهِ عَلَى الطَّاعَةِ وَلَمَّا أَنْ كَانَ كَرَمُهُ غَيْرَ مُضْمَحِلٍّ[1] وَثَوَابُهُ غَيْرَ أُفُولٍ وَلَا زَائِلٍ وَبِالتَّرْغِيبِ فِي الثَّوَابِ أَكَّدَ الزَّجْرَ عَنِ الْعِقَابِ فَعُفِيَ بِهِ لِلْجَاحِدِينَ بِهَذَا الْجَحْدِ لِأَنَّ الْجَحْدَ بِاللَّهِ وَالتَّكْذِيبَ تَكْذِيبٌ بِمَا لَا انْقِطَاعَ لَهُ وَلَا غَايَةَ وَالْإِيمَانَ بِهِ إِيمَانٌ بِمَا لَا غَايَةَ لَهُ وَلَا حَدَّ وَلَا نِهَايَةَ لِثَوَابِهِ وَلَا انْقِطَاعَ لِعِقَابِ الْكُفْرِ وَلَيْسَتِ الْمَعَاصِي الَّتِي لَيْسَتْ بِكُفْرٍ كَذَلِكَ لَيْسَتْ بِجَحْدٍ بِمَا لَا نِهَايَةَ لَهُ فَلِذَلِكَ جَوَّزْنَا رَفْعَ الْعِقَابِ عَلَى كُلِّ ذَنْبٍ سِوَى الْكُفْرِ فَهَذَا السَّبَبُ الَّذِي دَعَانَا أَنْ لَا نَرْفَعَ ثَوَابَ بِرٍّ وَلَا عِقَابَ كُفْرٍ.

إِنْ سَأَلَ سَائِلٌ فَقَالَ: لِمَ جَوَّزْتُمْ أَلَمَ الْأَطْفَالِ وَالْبَهَائِمِ وَهِيَ لَمْ تُجْرِمْ وَقَدْ وَصَفْتُمُ اللَّهَ بِالرَّأْفَةِ وَالرَّحْمَةِ وَالْعَدْلِ وَالْكَرَمِ؟

قِيلَ: لَهُمْ بِمَوْضِعِ الِامْتِحَانِ وَالْبَلْوَى وَالدَّلَالَةِ بِذَلِكَ عَلَى الْعَدْلِ وَالطَّوْلِ وَيُقَالُ لَهُ فِي خَلْقِهِ مَا يَشَاءُ وَلِانْفِصَالِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ لِأَنَّ الدُّنْيَا لَوْ كَانَتْ كَذَلِكَ إِنَّمَا يُعَذِّبُ فِيهَا وَيَحِلُّ بِهِ الْأَلَمُ إِلَّا لِمَنْ أَجْرَمَ كَانَتْ كَالْآخِرَةِ وَحَلَّتْ مَحَلَّ الْجَزَاءِ وَلَوْ صَارَتْ كَذَلِكَ لَمْ يَثْبُتِ الْمَعَادُ فَلَمَّا أَلَمَ الْمُحْسِنُ الْبَرُّ التَّقِيُّ دَلَّ بِذَلِكَ عَلَى أَنَّ هَذِهِ الدَّارَ لَيْسَتْ بِدَارِ الْجَزَاءِ إِذِ الْإِحْسَانُ فِيهَا لَا يَضِيعُ عِنْدَهُ وَإِنَّ لِلْخَلْقِ عَاقِبَةً يُحْمَدُ فِيهَا الْمُحْسِنُ وَيَصِيرُ إِلَيْهَا وَيُجْزَى التَّقِيُّ عَلَى تَقْوَاهُ وَإِذَا كَانَ الْأَلَمُ يَحُلُّ بِالتَّقِيِّ مَعَ تَقْوَاهُ كَانَ مَنْ لَمْ يُجْرِمْ أَحْرَى أَنْ يُؤْلَمَ بِالْأَلَمِ فَدَلَّ بِالْأَلَمِ الْحَالِّ أَنَّ رَفْعَ الْأَلَمِ مِنْ تَفَضُّلِهِ وَيَدُلُّهُمْ بِذَلِكَ عَلَى أَنْ يَكْرَهُوا الْعِقَابَ فَيَحْذَرُوا مِمَّا حُذِّرُوا وَلَمَّا أَنَّ كَانَتْ أَنْفُسُهُمْ لِلَّهِ وَصِحَّتُهُمْ وَسَلَامَتُهُمْ كَانَ سَلْبُهُ الصِّحَّةَ إِنَّمَا أَخَذَ مَا لَهُ وَلَمَّا أَنْ كَانَ لَهُ أَخْذُ الصِّحَّةِ لَمْ يُعَدَّ

1- منقطع

بالأَلَم إنْ سَلَبَ الصِّحَّةَ وَلَمَّا أَنْ كانَ مُحْسنًا برَفْع الأَلَم عَن الأَطْفَال وكَانَ بذَلكَ مُتَفَضِّلًا كَانَ عَدْلًا بإيقَاع الأَلَم فَالأَلَمُ عَدْلٌ ورَفْعُه طَوْلٌ فلذَلكَ وَجَبَ الشُّكْرُ عَلى رَفْع الأَلَم لأَنَّهُ طَوْلٌ وَلَوْ كانَ إيقَاعُ الأَلَم جَورًا كانَ رَفْعُه عَدْلًا وَلَوْ كَانَ عَدْلًا دُونَ أَنْ يَكونَ طَوْلًا لَبَطَلَ الشُّكْرُ وَلَوْ كانَ كَذَلكَ لَبَطَلَت الرَّغْبَةُ وَالرَّهْبَةُ وَلَمَّا أَنْ كَانَ مُحَالًا أَنْ يُضْرَبَ مَضْرُوبٌ بالسِّيَاط أَوْ يُلْقَى في النَّار وَهُوَ بهَذه الخلْقَة إلا وَجَدَ الأَلَمَ قَضَيْنَا بذَلكَ عَلى وُجُود الأَلَم إذَا ضَرَبَ وَذَلكَ فعْلُ اللَّه وَلَمَّا أَنْ كَانَ عَدْلًا إنْ خَلَّى بَيْنَنَا وَبَيْنَ ضَرْب البَهَائم ثُمَّ يُحْدثُ هُوَ عَنْ ضَرْبنَا الأَلَمَ كَانَ ابْتدَاؤُهُ مثْلَ تَخْليَته وَلَا يَجُوزُ أَنْ تَكونَ العَافيَةُ وَالصِّحَّةُ فعْلَهُ وَلا يَكونُ الأَلَمُ وَالسَّقَمُ فعْلَهُ وَلَمَّا أَنْ كَانَ الأَلَمُ يَحُلُّ بأَوْليَائه وَهُوَ أَعْظَمُ قَدْرًا عنْدَ اللَّه ممَّنْ لَمْ يُذْنبْ كَانَ ذَلكَ في الامْتحَان وَالبَلْوَى وَالدَّلالَة بذَلكَ عَلى العَدْل وَالطَّوْل لأَنَّهُ دَبَّرَ الخَلْقَ لأَمَد وَغَايَة فَأَرَاهُمْ أَثَرَ التَّنْقيص في مَحالِّهمْ وَاخْتلَاف المُطيع وَالعَاصي ليَحْسُنَ عَن المُطيع عَمَّا فَاتَهُ منَ الدُّنْيَا وَيَتَنَافَسَ في الآخرَة وَليَزْهَدَ العَاصي في الدُّنْيَا وَيَرْغَبَ فيمَا هُوَ أَمَامَهُ فَأَكَّدَ اللَّهُ حُجَّةَ الآخرَة بالأَلَم في الدُّنْيَا للتَّقيِّ وَمَنْ لَمْ يُذْنبْ وَأَبَانَهَا عَلى الدُّنْيَا بمَا أَرَى عَلَى العَاصي منْ أَثَر الحفْظ في الدُّنْيَا وَعَلى المُطيع منْ ضَنْك العَيْش وَشدَّة الامْتحَان وَالبَلْوَى وَلهَذَا أَلَمَ مَنْ لَمْ يَعْصِ وَمَا طُويَ عَنَّا أَكْثَرُ.

إنْ سَأَلَ سَائلٌ قَالَ: لمَ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَكونَ منَ الكَافرينَ الكُفْرُ وَهُوَ حَكيمٌ ووَجَدْنَا الحَكيمَ لا يُريدُ ذَلكَ؟

قيلَ: هَذَا الكَلَامُ خَطَأٌ وَذَلكَ أَنَّ الإرَادَةَ لَيْسَتْ بفعْل فَيُحْرَمُ ذَلكَ عَلَيْه وَإنَّمَا يَجُوزُ مَا ذَكَرْنَا في الأَفْعَال أَلَا تَرَى أَنَّهُ لا يَجُوزُ لقَائلٍ أَنْ يَقُولَ لمَ علَمَ اللَّهُ أَنَّ الكُفَّارَ يَكفُرُونَ لأَنَّهُ لَيْسَ بفعْلٍ يَجُوزُ.

فَإنْ قَالَ: وَلمَ قَدَّرَ ذَلكَ لأُمُور طَاعَةَ المُطيعينَ وَمَعْصيَةَ العُصَاة؟

قيلَ: قَدَّرَ ذَلكَ لأُمُور أَمَّا أَحَدُهَا ليَخُصَّ المُطيعَ بالطَّاعَة وَيَبْتَليَ العَاصيَ بالمَعْصيَة فَتُعْتَمَدُ عَلى الرَّغْبَة وَالرَّهْبَة في ذَلكَ أَيْضًا قَدَّرَ الحَقَّ وَالبَاطلَ ليَكونَ الحَقُّ حَقًّا يَجْعَلُهُ إيَّاهُ حَقًّا وَيَكونَ البَاطلُ بَاطلًا بإبَانَته إيَّاهُ منَ الحَقِّ وَلَوْ لَمْ يُقَدِّرْ شَيْئًا منْ ذَلكَ فَأَطَاعُوهُ وَهُوَ غَيْرُ مُقَدِّرٍ لطَاعَتهمْ لَمْ يَكنِ اللَّهُ حَقَّقَ مَا كَانَ منْ حَقِّهمْ وَلا أَبْطَلَ مَا كَانَ منْ بَاطلهمْ وَلا كَانَ شَيْئًا وَلا أَنْشَأَهُ وَلَوْ كَانَ شَيْءٌ مُنْشَأً وَلَّى اللَّهُ إنْشَاءَهُ لكَانَ العبَادُ وَلَوْا ذَلكَ وَأَبَانُوا

به أَنْفُسَهُمْ فَتَنْفَسُ الْأَشْيَاءَ قِسْمَيْنِ قِسْمٌ لِلَّه وَلَّى تَدْبِيرَهُ وَقِسْمٌ لِلْعِبَادِ وَلَّوْا تَدْبِيرَهُ فَأَحْكَمُوا الصَّنْعَةَ فَيُوَلِّي ذَلِكَ إِلَى مُدَبِّرِينَ كَثِيرٍ فَأَحْكَمُوا الصَّنْعَةَ وَأَصَابُوا التَّقْدِيرَ وَالتَّدْبِيرَ الْمُتْقَنَ غَيْرَ مَا أَتْقَنَ اللَّهُ فَأَرَادَ جَلَّ ثَنَاؤُهُ أَنْ يَخُصَّ أَوْلِيَاءَهُ بِتَقْدِيرِ الْبِرِّ مِنْهُمْ لِيَشْكُرُوهُ وَيَنْفِي تَقْدِيرَ الشَّرِّ عَنْهُمْ لِيَحْمَدُوهُ وَلِيَسْتَعِيذُوا مِنْ تَقْدِيرِ الشَّرِّ وَيَفِرُّوا بِتَفْضِيلِ اللَّهِ إِيَّاهُمْ عَلَى مَنْ جَحَدَهُ وَكَذَّبَ بِهِ وَلَوْ كَانَ اللَّهُ غَيْرَ مُقَدِّرٍ خَيْرًا مِنَ الْعِبَادِ كَانَ وَلَا شَرًّا كَانَ الْعِبَادُ أَبَانُوا بِهِ أَنْفُسَهُمْ بِالتَّفْضِيلِ وَالتَّشْرِيفِ وَالرُّجْحَانِ فَكَانَتْ مَكْرُمَةً وَرِفْعَةً لَا اللَّهُ الْمُتَوَلِّي لَهَا وَلَمَّا أَنْ كَانَ الْفَضْلُ لِلَّهِ وَبِاللَّهِ أَجْمَعُ فَكَيْفَ أُضِيفُ تَقْدِيرَ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ مِنْ أَعْمَالِ الْعِبَادِ لَا إِلَى اللَّهِ لِأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحْسَنَ بِجَعْلِهَا الْخَيْرَ خَيْرًا وَالشَّرَّ شَرًّا وَالْكُفْرَ بَاطِلًا وَالْجَوْرَ مُضْمَحِلًّا فَاسِدًا فَلِمَا ذَكَرْنَا أَضَفْنَا تَقْدِيرَ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ مِنْ أَعْمَالِ الْعِبَادِ إِلَى اللَّهِ.

إِنْ سَأَلَ سَائِلٌ فَقَالَ: مَا مَعْنَى قَوْلِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾[1] وَأَنْتُمْ تَقُولُونَ لَا خَالِقَ إِلَّا اللَّهُ؟

قِيلَ: لَهُمْ إِنَّ قَوْمًا فِيمَا مَضَى كَانُوا يَزْعُمُونَ أَنَّ كُلَّ فَاعِلٍ خَالِقٌ وَذَلِكَ فِي لُغَاتِهِمْ وَكَلَامِهِمْ فَكَانَ مَعْنَى خَالِقٍ فَاعِلًا فَخَاطَبَهُمُ اللَّهُ بِلُغَاتِهِمْ وَقَالَ: ﴿اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ فَأَقَامَ خَالِقَ مَعْنَى فَاعِلٍ. هُوَ غَيْرُ جَائِزٍ الْيَوْمَ فِي لُغَاتِنَا أَنْ يُقَالَ لِكُلِّ فَاعِلٍ خَالِقٌ وَاللَّهُ تَعَالَى أَحْكَمُ الْمُدَبِّرِينَ تَدْبِيرًا وَأَحْكَمُ الصَّانِعِينَ صُنْعًا فَمِنْ تَأْوِيلِ صَانِعٍ أَنْ يُقَالَ لِلَّهِ صَانِعٌ وَلِلْخَلْقِ صَانِعٌ وَلَا يُقَالُ لِلْخَلْقِ خَلَقُوا فَخَالِقٌ تَأْوِيلُهُ أَخَصُّ مِنْ تَأْوِيلِ صَانِعٍ لِأَنَّ صَانِعًا يُسَمَّى بِهِ الْخَلْقُ وَالْخَالِقُ فَصَارَ عَامًّا وَخَالِقٌ لِلَّهِ دُونَ خَلْقِهِ فَصَارَ خَاصًّا وَلَيْسَ بِجَائِزٍ الْيَوْمَ أَنْ يُقَالَ لِكُلِّ فَاعِلٍ خَالِقٌ وَاللَّهُ الْمُتْقِنُ لِكُلِّ مَا تَوَلَّى لَا أَوَدًا فِيمَا دَبَّرَ وَلَا فُطُورًا فِيمَا فَطَرَ وَلَا خَلَلًا فِيمَا صَاغَ فَجَاءَتِ الْأُمُورُ عَلَى إِرَادَتِهِ وَإِتْقَانِهِ فَهَذَا ذِكْرُ تَفْسِيرِ الْجُمَلِ.

إِنْ سَأَلَ سَائِلٌ فَقَالَ: أَتَزْعُمُ أَنَّ اللَّهَ جَلَّ ثَنَاؤُهُ بَاقٍ،؟

قِيلَ: نَعَمْ.

فَإِنْ قَالَ: أَفَتُثْبِتُ مَعْنَى بَقَاءٍ؟

1- الاية 14 من سورة المؤمنون

قِيلَ: كَلَامُكَ يَحْتَمِلُ مَعْنَيَيْنِ أَحَدُهُمَا هَلْ تُثْبِتُ مَعْنَى بَقَائِهِ يُرِيدُ هَلْ يُثْبِتُهُ بِصِفَةٍ هِيَ ضِدُّ صِفَةِ الْفَنَاءِ فَنَعَمْ لِأَنَّ تَأْوِيلَ فَنِيَ لَيْسَ بِوُجُودٍ وَالْمَعْنَى الآخَرُ هَلْ تُثْبِتُ مَعْنًى بَقِيَ يُرَادُ مَعْنًى غَيْرَ الْبَاقِي فَخَطَأٌ لِأَنَّ الْبَقَاءَ الَّذِي هُوَ غَيْرُ الْبَاقِي إِنَّمَا يَكُونُ مِمَّنْ يَبْقَى لِمُرُورِ الأَعْمَارِ عَلَيْهِ وَاللَّهُ الْبَاقِي الْمُبْقِي الْمُحْدِثُ لِبَقَاءِ الْخَلْقِ فَخَطَأٌ أَنْ يُقَالَ بَقَاؤُهُ غَيْرُهُ وَلَكِنْ يُقَالُ لَهُ بَقَاءٌ عَلَى تَأْوِيلِ إِنَّهُ بَاقٍ عَلَى نَظِيرِ مَا يُقَالُ لَهُ عِلْمٌ عَلَى أَنَّهُ عَالِمٌ وَإِنَّ الأَشْيَاءَ لَا تَخْفَى.

وَكَذَلِكَ إِنْ سَأَلَ سَائِلٌ فَقَالَ: الْمُدَاوِمُ؟

قِيلَ: نَعَمْ عَلَى تَأْوِيلِ إِنَّهُ دَائِمٌ فَخَطَأٌ أَنْ يُقَالَ لَهُ دَوَامٌ بِهِ دَامَ كَمَا كَانَ خَطَأً أَنْ يُقَالَ لَهُ بَقَاءٌ بِهِ بَقَاءٌ فَنَفَيْنَا بِدَوَامِهِ الزَّوَالَ كَمَا نَفَيْنَا بِبَقَائِهِ الْفَنَاءَ.

فَإِنْ قَالَ: أَفَأَدَامَ أَمْ نَفْسَهُ؟

قِيلَ: خَطَأٌ وَكَذَلِكَ لَوْ قَالَ أَبْقَى نَفْسَهُ وَذَلِكَ أَنَّ دَوَامَهُ وَبَقَاءَهُ لَيْسَ بِفِعْلٍ فَيُقَالُ فَعَدُّوا بَقَاءَ نَفْسِهِ وَأَدَامَ نَفْسَهُ فَخَطَأٌ وَكَذَلِكَ لَا يَجُوزُ أَقْدَرَ نَفْسَهُ وَأَعْلَمَ نَفْسَهُ وَكَذَلِكَ قَيُّومٌ مِثْلُ دَائِمٍ وَبَاقٍ وَلِلْقَيُّومِ مَعْنًى فِي التَّدْبِيرِ أَيْ حَافِظٌ وَمُحِيطٌ وَقَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَإِنَّمَا يَجُوزُ أَدَامَ الْخَلْقَ وَأَفْنَاهُمْ كَمَا يُقَالُ أَقْدَرَهُمْ وَأَعْلَمَهُمْ.

وَكَذَلِكَ إِنْ سَأَلَ سَائِلٌ: أَهُوَ فِي كُلِّ مَكَانٍ؟

قِيلَ: نَعَمْ.

فَإِنْ قَالَ: أَفَكَوْنُهُ فِي كُلِّ مَكَانٍ فِعْلٌ؟

قِيلَ: خَطَأٌ وَذَلِكَ أَنَّ تَأْوِيلَ هُوَ فِي كُلِّ مَكَانٍ عَلَى غَيْرِ الْحُلُولِ وَالاشْتِغَالِ وَالسَّكَنَةِ لِلْأَمَاكِنِ وَإِنَّمَا يَكُونُ كَوْنُ الشَّيْءِ فِي الأَمَاكِنِ فِعْلًا إِذَا كَانَ حَالًّا وَمُمَاسًّا وَمُسْتَقِرًّا وَذَلِكَ إِنَّ تَأْوِيلَ هُوَ فِي كُلِّ مَكَانٍ إِنَّمَا هُوَ غَيْرُ غَائِبٍ عَنِ الأَمَاكِنِ لِأَنَّ الْغَيْبَةَ عَنِ الْمَوْجُودِ حُلُولٌ وَذَلِكَ أَنَّهُ قَدِ انْقَطَعَ عَنِ الْمَوْضِعِ الَّذِي لَيْسَ هُوَ فِيهِ فَنَفَيْنَا غَيْبَتَهُ عَنِ الأَمَاكِنِ بِنَفْيِ الْحَدِّ عَنْهُ وَلِكَوْنِهِ فِي الأَمَاكِنِ مَعْنًى فِي الْفِعْلِ وَهُوَ التَّدْبِيرُ وَالإِمْسَاكُ.

فَإِنْ قَالَ: فَحُضُورُهُ الأَشْيَاءَ فِعْلٌ؟

قِيلَ: خَطَأٌ لِأَنَّ لَمْ يَحْضُرْ بَعْدَ غَيْبَةٍ فَيَكُونَ فِعْلًا إِنَّمَا دَبَّرَ أَمْرًا فَكَانَ غَيْرَ غَائِبٍ عَنْ تَدْبِيرِهِ وَحَاضِرٌ بِالتَّدْبِيرِ وَحَاضِرٌ بِالْعِلْمِ وَنَفْيِ الْغَيْبَةِ وَإِنَّمَا يَكُونُ الْحُضُورُ فِعْلًا لِمَنْ يَغْتَرِبُ عَنِ الْأُمُورِ ثُمَّ يَنْتَقِلُ إِلَيْهَا وَلَيْسَ اللَّهُ كَذَلِكَ وَإِنَّمَا يَكُونُ شُهُودُ الشَّيْءِ لِلشَّيْءِ فِعْلًا إِذَا كَانَ شَاهِدًا فَغَابَ فَقَدْ بَطَلَتِ الْحُضُورُ بِالْغَيْبَةِ أَوْ كَانَ غَائِبًا ثُمَّ حَضَرَ فَقَدْ بَطَلَتِ الْغَيْبَةُ بِالْحُضُورِ وَالَّذِي يَبْطُلُ مِنْ ذَلِكَ غَيْرُ الشَّيْئَيْنِ وَاللَّهُ جَلَّ ثَنَاؤُهُ غَيْرُ غَائِبٍ عَنْ تَدْبِيرِهِ وَهُوَ لِلْأَشْيَاءِ كُلِّهَا فَتَدْبِيرُهُ فِعْلٌ وَحُضُورُهُ لَيْسَ بِفِعْلٍ وَإِنَّمَا هُوَ الْحَاضِرُ وَكَذَلِكَ كَوْنُهُ فِي الْأَمَاكِنِ لَيْسَ بِفِعْلٍ مِثْلِ حُضُورِهِ وَلَا يَجُوزُ مُكْثُهُ وَلَكِنْ يُقَالُ بَقَاؤُهُ وَلَيْسَ بِالْبَقَاءِ الْحَادِثِ لِأَنَّ الْأَوْقَاتَ لَا تَمُرُّ عَلَيْهِ وَالْأَوْقَاتُ إِنَّمَا تَجْرِي عَلَى ذَوِي الْأَعْمَارِ وَاللَّهُ مَوْجُودٌ وَالْأَوْقَاتُ عَلَى الْأَشْيَاءِ تَجْرِي وَلَا يَجْرِي ذَلِكَ عَلَيْهِ وَلَا يَجُوزُ عَلَيْهِ. لَكِنْ كَمَا قِيلَ: بَاقٍ وَدَائِمٌ وَلَيْسَ سَاكِنَ الْأَمَاكِنِ وَلَا مَاكِثٌ وَلَا لَابِثٌ بِبَعِيدٍ إِذْ لَمْ تُرِدْ بِالسُّكُونِ ضِدَّ الْحَرَكَةِ وَالِاشْتِغَالِ لِلْأَمَاكِنِ كَمَا يُقَالُ سَاكِنُ السَّمَاءِ أَيْ أَنَّهُ عَلَى السَّمَاءِ وَإِنَّمَا يُنْفَى مِنْ هَذَا فِي الْقِيَاسِ مَا كَانَ تَشْبِيهًا وَمَا لَمْ يَكُنْ تَشْبِيهًا فَلَيْسَ يُنْفَى لِأَنَّ الْأُمَّةَ لَمْ تَقُلْهُ.

إِنْ سَأَلَ سَائِلٌ فَقَالَ: كَيْفَ وَصَفْتُمُ اللَّهَ بِالْجُودِ وَالْكَرَمِ وَقَدْ مَنَعَ لَا يَنْفَعُهُ مَنْعُهُ وَلَا يَنْقُصُهُ بَذْلُهُ وَذَلِكَ نَافِعٌ لِلْمَمْنُوعِ؟

قِيلَ: لَيْسَ لِمَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ مِنَ الْأَفْضَالِ غَايَةٌ وَلَا نِهَايَةٌ فَيَفْعَلَ غَايَةَ مَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ مِنْ ذَلِكَ فَيَسْتَحِقَّ حَقِيقَةَ الشُّكْرِ. وَلَكِنْ لَمَّا أَنْ خَلَقَ النَّاسَ فِي دَارِ الِامْتِحَانِ وَالْبَلْوَى أَعْطَى وَاحِدًا وَمَنَعَ آخَرَ لِيُنْدَبَ بِالْمَنْعِ إِلَى الصَّبْرِ وَبِالْعَطَاءِ إِلَى الشُّكْرِ وَلِيَكُونَ الْمُعْطَى مَعَ الْعَطِيَّةِ رَاغِبًا فِي الزِّيَادَةِ لِأَنَّهُ قَدْ بَقِيَ زِيَادَةُ الْإِنْسَانِ إِلَيْهَا حَاجَةٌ وَلَوِ اسْتَفْرَغَ حَاجَتَهُ زَالَتْ رَغْبَتُهُ وَلَا يَكُونُ مَعَ ذَلِكَ خَائِفًا لِاسْتِسْلَابِ النِّعَمِ فَيُتَعَبَّدَ عَلَى الرَّغْبَةِ وَالرَّهْبَةِ فِي ذَلِكَ وَالْحَاجَةِ إِلَيْهِ وَالْعُرْوَةِ وَيَحْضُرُ عَلَيْهِمُ الْأُمُورَ لِيَتَنَافَسُوا فِي الْعَمَلِ لِدَارٍ لَا تَحْظُرُ فِيهَا الشَّهَوَاتُ وَهُمْ فِيهَا يَتَنَعَّمُونَ خَالِدُونَ وَلَمْ يَمْنَعِ اللَّهُ مَا مَنَعَ لِيَكْثُرَ بِالْمَنْعِ وَلَا يَخَافُ فِي الْإِفْضَالِ نَقْدًا وَلَمْ يَكُنِ اللَّهُ بَاذِلًا لِلْخَلْقِ غَايَةَ مُنَاهُمْ إِلَّا وَقُدْرَةُ اللَّهِ عَلَى الزِّيَادَةِ قَائِمَةٌ وَلَا تَلْزَمُهُ صِفَةُ بُخْلٍ وَإِنَّمَا تَلْزَمُ النَّاسَ صِفَةُ بُخْلٍ فِي مَنْعِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ مَنْعُهُ وَلَا يَنْقُصُهُمْ بَذْلُهُ لِأَنَّهُمْ يَنَالُونَ بِالْبَذْلِ صِفَةَ الرُّجْحَانِ وَبِالْحَبْسِ ضِدَّ ذَلِكَ وَالْخَلْقُ إِلَى الثَّنَاءِ حَاجَةٌ وَإِلَى الطَّاعَةِ رَغْبَةٌ فَلَمَّا تَرَكُوا الْبَذْلَ فَاتَتْهُمْ

الطَّاعَةُ الَّتِي بِهِمْ إِلَيْهَا حَاجَةٌ وَحَضَرَ الثَّنَاءُ عَلَيْهِمْ وَكَانُوا بِهِ يَتَشَرَّفُونَ وَالْخَلْقُ لَا يُمْتَحُونَ بِالْمَنْعِ وَمَنِ امْتُحِنَ بِذَلِكَ مِنْهُمْ لَمْ يُسَمَّ مَنْعُهُ بُخْلًا وَلَيْسَ يَعْتَرِضُونَ بِالْمَنْعِ رَغْبَةَ الطَّلَبِ وَلَا يَدُلُّونَ بِذَلِكَ عَلَى مَعَادٍ وَمَصِيرٍ كَمَا دَلَّ اللَّهُ بِذَلِكَ عَلَى الرِّحْلَةِ وَالظَّعْنِ مِنَ الدُّنْيَا إِلَى غَيْرِهَا وَالْخَلْقُ مَعَ ذَلِكَ قَدْ حُرِّضُوا وَأُوصُوا بِالْعُرْفِ لِمَا يَعُودُ عَلَيْهِمْ نَفْعُهُ وَضَرَرُهُ وَالتَّارِكُ لِذَلِكَ تَارِكٌ حَظَّهُ وَتَرْكُهُ ذَلِكَ عَنْ شُحِّ طِبَاعٍ وَضِيقِ الْبِنْيَةِ وَاللَّهُ لَيْسَ يَمْنَعُ لِمَا بِهِ يَمْنَعُ الْخَلْقَ قَدْ يُعْطِي مَعَ الْكُفْرِ وَيَمْنَعُ مَعَ الشُّكْرِ لِيُزَهِّدَ فِي الدُّنْيَا بِبَسْطِهِ لِلْكَافِرِ وَيُرَغِّبَ فِي الْمَعَادِ وَيَدُلَّ عَلَيْهِ بِحَظْرِ أَقْسَامِ السَّعَةِ عَلَى وَلِيِّهِ وَنَحْوِهِ مَنْ مَنَعَ مَعَ الْقُدْرَةِ وَلَا يُسَمَّى بِالْبُخْلِ.

إِنْ سَأَلَ سَائِلٌ فَقَالَ: لِمَ خَلَقَ اللَّهُ الْخَلْقَ؟

قِيلَ: لِأُمُورٍ كَثِيرَةٍ مِنْ ذَلِكَ أَنْ يُقَالَ إِنَّ اللَّهَ خَلَقَهُمْ أَدِلَّةً عَلَيْهِ وَحُجَجًا فِي تَوْحِيدِهِ وَمِنْ ذَلِكَ مَا هُوَ مَوْعِظَةٌ وَعِبْرَةٌ وَمِنْهُ مَا هُوَ قَرَارٌ لِلْخَلْقِ وَتَنَفُّسٌ لَهُمْ كَالْجَوِّ وَالْمَكَانِ وَمِنْهَا هُوَ غِذَاؤُهُمْ وَقِوَامٌ لِخَلْقِهِمْ وَمِنْهُ مَا قَرَارٌ وَمَعَايِشُ وَمِنْهُ آلَاتٌ وَمَعَادِنُ يَتَصَرَّفُونَ بِهَا فِي مَنَابِعِهِمْ وَمِنْهُ مَا هُوَ وَقْتٌ فَذَلِكَ أَعْمَارُهُمْ وَأَسْبَابُهُ مَا خَلَقَ الْخَلْقَ شَتَّى وَمِنْهُ مَا خَلَقَهُ نِعْمَةً عَلَى وَاحِدٍ وَبَلِيَّةً عَلَى آخَرَ وَفِتْنَةً لِبَعْضِهِمْ وَرَحْمَةً لِغَيْرِهِمْ.

فَإِنْ قَالَ: أَفَخَرَجَ شَيْءٌ مِمَّا ذَكَرْتُمْ؟

قِيلَ: نَعَمْ أُمُورٌ لَمْ تُعَايَنْ فَتُحْمَلَ عَلَى وَحْدَانِيَّتِهِ فَتَكُونَ مَوْعِظَةً وَعِبْرَةً وَلَيْسَ قَرَارَ لَا جَدَّ وَلَا غِذَاءَ وَلَا مَصْلَحَةَ.

فَإِنْ قَالَ: فَلِمَ خَلَقَ ذَلِكَ وَقَدْ خَرَجَ عَنْ حَدِّ مَا ذَكَرْتُمْ؟

قِيلَ: لَهُمْ إِنَّهُ لَمْ يَخْلُقْ شَيْئًا لِعِلَّةٍ كَانَ لَا يَجُوزُ أَنْ يَخْلُقَ الْأَشْيَاءَ لِغَيْرِهَا وَإِنْ خَلَقَهَا لَا لِعِلَّةٍ كَانَ ذَلِكَ عَبَثًا وَصِفَةً مَذْمُومَةً وَلَوْ كَانَ خَلَقَ الْخَلْقَ جَمِيعًا لِلْعِلَّةِ لَكَانَتِ الْعِلَّةُ نَفْسُهَا خَلْقًا فَلِمَ خَلَقَ ذَلِكَ وَمَا سَبَبُهُ فَكَيْفَ يَكُونُ أَمْرٌ خَرَجَ مِنْ مَصْلَحَةِ الْخَلْقِ لِعِلَّةِ مَصْلَحَةِ الْخَلْقِ أَمْرًا لَوْ كَانَ رُفِعَ لَمْ يَكُنِ ابْتِدَاءً لَمْ تَزَلْ حِكْمَتُهُ وَلَمْ تَثْبُتْ لِكَوْنِهَا حُجَّةً إِذْ مَا خَلَقَ اللَّهُ أَكْثَرُ مِنْ أَنْ يُحِيطَ بِهِ أَوْهَامُ الْخَلْقِ وَقَدِ اسْتَتَرَ كَثِيرٌ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ عَنْ إِبْصَارِ الْأَنَامِ وَلَطُفَ عَنْ دَرْكِهِ الْأَوْهَامَ بَلْ قَدِ ابْتَدَأَ ذَلِكَ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ الْخَلْقَ وَكَيْفَ مَخْلُوقٌ لِعِلَّةٍ وَقَدْ كَانَ قَبْلَهُمْ بِمَقَادِيرِ

الْأَزْمِنَة لَا يَعْلَمُ ذَلِكَ إِلَّا اللَّهُ وَلَوْ كَانَ اللَّهُ ابْتَدَأَ كُلَّ أَمْرٍ لِعِلَّةِ مَصْلَحَةِ الْخَلْقِ مَنَافِعِهِمْ وَبَقَائِهِمْ وَأَعْمَارِهِمْ لَمْ يَجُزْ ذَلِكَ غَيْرَهَا وَلَمَّا جَازَ كُلُّ أَمْرٍ قَبْلَ وَقْتَ مَا دَبَّرَ وَلَا تَأَخَّرُهُ عَنْ حَالِهِ سَاعَةً وَاحِدَةً وَلَا زِيَادَةً فِيهَا وَلَا نُقْصَانًا لِأَنَّ ذَلِكَ يُؤَدِّي إِلَى عَيْبٍ وَلَفَسَدَتِ الْقُدْرَةُ عَلَى صَرْفِ وَاحِدٍ مِنْ هَذَا الْعَالَمِ عَنْ حَدٍّ مَا وُجِدَ عَلَيْهِ مِنْ تَأْخِيرِهِ وَتَقْدِيمِهِ وَزِيَادَتِهِ وَنُقْصَانِهِ وَلَوْ فَسَدَ ذَلِكَ بَطَلَ الامْتِنَانُ فِي وَضْعِ الْأُمُورِ عَلَى حُدُودِهَا وَمَكَانِهَا إِذِ النَّقْصُ لِذَلِكَ عَنْ حَدِّهِ وَسَبَبِهِ مُزِيلُ الْحِكْمَةِ وَمَا نَفَى الْحِكْمَةَ أَدْخَلَ فِي الْخَطَأِ وَاللَّهُ جَلَّ ثَنَاؤُهُ خَلَقَ مِنَ الْأُمُورِ دَلَالَةً وَعِبْرَةً وَحُجَّةً وَمِنْ ذَلِكَ مَا هُوَ غِذَاءٌ وَنِعْمَةٌ وَرَأْفَةٌ وَرَحْمَةٌ وَمِنْهُ مَا هُوَ قِوَامٌ وَقَرَارٌ وَسُكْنَى وَمِنْهَا مَا هُوَ خَارِجٌ مِنْ ذَلِكَ وَلَيْسَ بِعَيْبٍ وَلَا خَطَإٍ لِأَنَّ الْخَطَأَ وَضْعُ الْأَشْيَاءِ عَلَى غَيْرِ مَوَاضِعِهَا وَصَرْفُ الْأُمُورِ مِنَ النَّفْعِ إِلَى الضُّرِّ وَابْتِدَاعُ الْأُمُورِ يُعْقِبُ فِيهَا الْجَوْرُ وَالْجَهْلُ وَافِرٌ وَكُلُّ صَانِعٍ يَصْنَعُ صَنِيعَةً فَإِنَّهُ يَنَالُ بِالصَّنْعَةِ رُجْحَانًا وَأَدْخَلَهُ فِي مَنْزِلَةٍ خَسِيسَةٍ وَالَّذِي هُوَ كَذَلِكَ بِهِ إِلَى التَّدْبِيرِ حَاجَةٌ لِمَا نَالَهُ مِنَ الْفَضِيلَةِ وَالْأُمُورُ الَّتِي أَنْشَأَهَا اللَّهُ وَذَرَأَ وَبَرَأَ إِنَّمَا كَوَّنَتْ لِمَنَافِعِ الْخَلْقِ لِمَا يَعُودُ عَلَيْهِمْ نَفْعُهُ وَضَرَرُهُ وَاللَّهُ عَنْ ذَلِكَ مُتَعَالٍ وَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ أَمْرًا لَوْ أَحَلَّهُ مَا زَالَتْ صِفَتُهُ وَقَدْ أَحَلَّ اللَّهُ أَمْرًا لَوْ حَرَّمَهُ كَانَتْ صِفَتُهُ عَلَى مَا هِيَ عَلَيْهِ الْيَوْمَ فَاسْتَعْبَدَنَا بِالتَّحْلِيلِ وَالتَّحْرِيمِ وَأَمَرَ غَيْرَ رَاغِبٍ وَنَهَى غَيْرَ رَاهِبٍ وَشَكَرَ غَيْرَ مَصْنُوعٍ إِلَيْهِ وَامْتَحَنَ غَيْرَ مُجَرِّبٍ وَدَبَّرَ لِغَيْرِ حَاجَةٍ وَكَتَبَ لَا لِأَجْلِ النِّسْيَانِ وَنَقَلَ أَحْكَامًا إِلَى غَيْرِهِ مِنْ غَيْرِ اشْتِغَالِ أَمْرٍ وَلَا صِفَةٍ وَلَكِنَّهُ الْمَالِكُ الْمُقْتَدِرُ فَلَهُ الْحَمْدُ عَلَى ذَلِكَ كَثِيرًا وَعَلَى الْعِبَادِ التَّسْلِيمُ وَبِاللَّهِ التَّوْفِيقُ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى أَمْرِ الدِّينِ وَالْآخِرَةِ وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ.

****

خاتمة النَّاسِخِ

تَمَّ مَا وُجِدَ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ كَتَبَهُ بِيَدِهِ الْفَانِيَةِ سُلَيْمَانُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ الْحَاجِّ يَحْيَى بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ إِبْرَاهِيمَ بْنِ أَبِي بَكْرِبْنِ سُلَيْمَانَ الْمَعْقَلِيُّ نَسَبًا الْإِبَاضِيُّ مَذْهَبًا اللَّهُمَّ اغْفِرْلَهُ وَلِجَمِيعِ مَشَايِخِهِ الْأَوَّلِينَ وَالْآخَرِينَ وَجَمِيعِ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ الْأَحْيَاءِ مِنْهُمْ وَالْأَمْوَاتِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ وَكَانَ الْفَرَاغُ مِنْ نَسْخِهِ ضَحْوِيَّةَ يَوْمِ الْأَرْبِعَاءِ 20 ذِي الْقَعْدَةِ سَنَةَ 1187 هـ.

****

تم الكتاب بحمد الله تعالى

الجمعية الليبية للدراسات الأمازيغية

2025

طرابلس/ ليبيا